

البغاء فى مصر فى العصر المملوكى

٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م

د. سامية على مصيلحى*

ملخص

عرف البغاء منذ أقدم العصور، وجاءت الأديان السماوية بتحريمه، وكان أشدها فى ذلك الدين الإسلامى الحنيف، حيث عده من الكبائر وتوعد مرتكبه بأشد العقاب. لكن البغاء فى العصر المملوكى اتخذ شكلا مختلفا، فقد اعتبرت دولة المماليك مصدرا لتمويل خزانتها بالمال، وفى سبيل ذلك اعترفت بالبغايا، ووفرت لهن الحماية الرسمية نظير ما كن يدفعنه من ضرائب كانت تدر دخلا كبيرا للدولة وهذا مما لم يعهد من قبل فى تاريخ الدولة الإسلامية. وبينما عارض بعض سلاطين المماليك هذه الممارسات الشاذة، والأعمال المنافية للأداب، وجد منهم من أيدها، وحرص على جمع الضرائب عليها مما ساعد على انتشارها. وقد ظلت سياسة دولة المماليك تجاه البغاء تتأرجح بين السماح والرفض حتى سقوط دولتهم فى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

* مدرس التاريخ الإسلامى - كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر.

Prostitution in Egypt during the Mamluke Period 648-923A.H./ 1250-1517A.D

Abstract

Prostitution was known since more ancient eras, the spiritual religions has prohibited it, The true religion- Islam- was the strongest opponent considering it as one of the major sins and threaten its wrongdoer with the strongest punishment. Prostitution in during the Mamluke Period took a different form, as the mamluke state considered it as a source for financing its treasuries with money, so they recognized the prostitutes and provided them with the formal protection in return for the taxes they pay which formed a big income source, which never happened before in the Islamic State's history. As many Mamluke sultans opposed those perverted and against sexual practices, others supported them and were concerned about their taxes collection, which helped on their spreading. The Mamluke State's policy regarding prostitution was alternating between permission and refusal till their state end in 923 A.H./ 1517A.D.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الغرائز استعدادات فطرية فى الإنسان، منها الغريزة الجنسية، وهى ضرورية للتناسل والتكاثر وحفظ النوع، فالغريزة الجنسية لم تخلق كمتعة فى ذاتها. وقد جعل الله سبحانه وتعالى الزواج الوسيلة الوحيدة للاتصال بين الجنسين^(١)، فيجب على المرء أن يتمسك بالعفاف والفضيلة، ويبتعد عن الخطيئة والرذيلة، ويكبح جماح شهواته ويمنعها من الوقوع فى الآثام. ولكن لضعف النفس البشرية كان هناك المنحرفون الذين ابتعدوا عن طريق الهداية والرشاد ولجأوا إلى البغاء لتحقيق لذاتهم وإشباع شهواتهم.

البغاء Prostitution يعنى علاقة جنسية غير مشروعة تقوم بين رجل وامرأة بقصد الحصول على فائدة مادية أيا كان نوعها، وذلك من قبل المرأة^(٢).

وفى اللغة: بغت الأمة تبغى بغيا عهرت وزنت، وخرجت المرأة تباغى أى تزانى. والبغى: التعدى يقال بغى الرجل علينا بغيا؛ أى عدل عن الحق واستطال. والبغى: الفاجرة، سواء كانت حرة أو أمة. وفى التنزيل العزيز "وما كانت أمك بغيا" أى ما كانت فاجرة.^(٣)

وقد توعده الله فى كتابه العزيز من يرتكبون مثل هذه الجرائم بأشد العقاب فى الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ﴾^(٤).

فقرن الله سبحانه وتعالى الزنا بالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، وأوعده مرتكبه بالعذاب الشديد يوم القيامة. وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الجريمة الشنعاء بالفاحشة والفحشاء والفواحش.^(٥)

وكما نهى الله عز وجل عن ارتكاب هذه الجريمة، نهى أيضا عن إكراه الغير على ارتكابها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَتَبْغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٦).

وجاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يا معشر المسلمين... اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فذهاب بهاء الوجه وقصر العمر ودوام الفقر، وأما التي في الآخرة فسخط الله تبارك وتعالى وسوء الحساب والعذاب بالنار" (٧).

والزنا والإيمان لا يجتمعان لأن الإيمان الصحيح يحول بين الإنسان ومعصية ربه؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" (٨).

والزنا يؤدي إلى تعجيل عقاب الله في الدنيا؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فيوشك أن يعصمهم الله عز وجل بعقاب" (٩).

مشكلة البغاء:

لما كان البغاء أمراً يدعو إلى التقزز ويتنافى مع الخلق الكريم بل ويعد عاراً لمن ارتكبه لا يحويه الدهر أبداً، لذا فقد حرّمته جميع الأديان السماوية، وكان الدين الإسلامي الحنيف أشدها إنكاراً له (١٠)، لما فيه من الإضرار بالمجتمعات، فهو يهدم الأسر ويهدر الأموال وينشر الرذيلة بالإضافة إلى ما فيه من امتحان لكرامة المرأة التي تمارس مثل هذا العمل، فالبغاء يمثل صورة واضحة من صور الانحراف، حيث تتاجر المرأة بنفسها. (١١).

أثبت الطب أن البغاء يمثل مشكلة صحية، حيث يؤدي إلى ظهور الأمراض التناسلية؛ مثل الزهري والسيلان، وهما ينشآن عن ميكروبات تصيب الجهاز التناسلي وتنتقل عن طريق العدوى من شخص إلى آخر أثناء الاتصال الجنسي (١٢).

على أن أخطر المشاكل الاجتماعية التي تنتج عن ممارسة البغاء هي اختلاط الأنساب وإنجاب أبناء غير شرعيين. (١٣)، ولهذا فرض الإسلام العقوبات الرادعة على مرتكبيه ليظهر المجتمع من مفاصلهم؛ قال تعالى: ﴿الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤).

أسباب الاتحال الخلقى فى العصر المملوكى:

لا شك فى أن طبائع الحكم الاستبدادى كانت -ولا تزال- ترمى إلى إخضاع الشعوب وإذلالها، ولن يتأتى ذلك إلا بفقدانها كرامتها، وتخليها عن مبادئها، وتجريدها من الفضائل وغمسها فى اللهو والردائل، فتتخط أخلاقها، وتذهب هممها، ويسهل على الحكام المستبدين حكمهم. (١٥)

من أجل هذا تهاون المماليك فى ضبط سلوكيات المصريين فى الوقت الذى أسرفوا فيه فى اللهو والمجون.

لقد عمل أغلب سلاطين المماليك على جمع الثروات الضخمة، واقتناء كل نفيس وغال، وفى سبيل ذلك ارتكبوا المظالم، وتعسفوا مع المصريين من فلاحين وتجار وأعيان، وسنوا سياسة المصادرات والطرح على التجار، والضرائب الجائرة، كل ذلك للحصول على الأموال، وأطلق بعض سلاطين المماليك لأنفسهم العنان فى انفاق هذه الأموال، وتقننوا فى قضاء أوقات اللهو والتمتع بمتع الحياة ولذاتها. (١٦)

لقد امتلأت حياة كثير من سلاطين المماليك بالمعاصى والإسراف فى الملذات والبذخ إلى حد السفه، وإن تظاهر بعضهم بالتقوى والورع، فإن هذا كان ستاراً لخداع المصريين (١٧).

نذكر من هؤلاء السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١-٧٤٢هـ / ١٣٤٠-١٣٤١م) الذى كان يقضى الليالى الساهرة فى الخلاعة والدعارة. (١٨) وأكثر من شرب الخمر "وأفحش فى التجاهر باللهو" (١٩)، وكان يعمل مقامات "ويحضر إليها البغايا والمغانى" (٢٠).

وشغف السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد (٧٤٣-٧٤٦هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥م) بالجوارى السود، وقرب إليه أرباب الملاهى، وأقبل على النساء والمطربين، وانشغل عن شئون دولته، "فصارت الإقطاعات والرزق والوظائف لا تقضى إلا بالخدم والنساء" (٢١).

ويعد عهد السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦-٧٤٧هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦م) فترة من الفترات التى سادت فيها الخلاعة والمجون فى تاريخ مصر، فقد "أقبل على اللهو والنساء، وصار يبالغ فى تحصيل الأموال ويبذرهما

عليهن" (٢٢)، وقد أدت سياسته إلى خراب بلاد كثيرة؛ لانشغاله باللهو وملازمته شرب الخمر والإجهار بالفواحش والتهتك في النزه والصيد وسماع الأغاني، فضلاً عن تمكينه النساء والطواشية من التصرف في دولته. (٢٣).

وتظاهر المصريون في عهده بكل قبيح؛ نتيجة لتصرفاته المستهترة، فلم يعبا بذلك، وقال: "خلو كل أحد يعمل ما يريد" (٢٤).

ثم كان عصر السلطان الملك المظفر حاجي (٧٤٧-٧٤٨هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م) والذي أقبل على اللهو وشغف بالنساء (٢٥)، وأظهر من الخلاعة وفساد الخلق ما جعل عهده أسوأ من عهد سلفه، ولم يمنعه القحط الذي عانت منه البلاد من التماذي في الرذيلة والفجور مع حظاياه وقياه ومغنياته وحاشيته (٢٦)، وأكثر من الاجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف، "وصار يتجاهر بما لا يليق به أن يفعله" (٢٧).

وكان السلطان الناصر حسن (٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م) (٧٥٥-٧٦٢هـ/ ١٣٥٤-١٣٦٠م) "مغرماً بالنساء والخدام"، وكان يصطحبهم معه في سفره، وعن شغفه بحب النساء كتب فيه بعضهم قائلاً:

لما أتى للعاديات وزلزلت	حفظ النساء وما قرا للواقعة
فلأجل ذاك الملك أضحي لم يكن	وأتى القتال وفصلت بالقارعة
لو عامل الرحمن فاز بكهفه	وبنصره في عصره في السابعة
من كانت القينات من أحزابه	عطط به الدخان نار لامة
تببت يدا من لا يخاف من الدعا	في الليل إذ يغشى يقع في النازعة (٢٨)

وعرف عن الملك المنصور محمد بن السلطان المظفر حاجي (٧٦٢-٧٦٤هـ/ ١٣٦١-١٣٦٣م) أنه كان "يدخل بين نساء الأمراء ويمزح معهن، وأنه كان يعمل مكاريا للجواري ويركبن ويجري هو وراء الحمار بالحوش السلطاني، وأنه كان يأخذ زنبيلاً فيه كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المماجنة، وأنه يفسق في حريم الناس ويخل بالصلوات..." (٢٩).

وكان السلاطين يتخذون الغلمان الصباح من المماليك للخدمة والمتعة ويجعلونهم جمدارية (٣٠) لهم (٣١).

ويروى ابن حجر أن الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون شغف بـ غلام جميل الصورة، وهام به غراما وتهتك فيه "فأمر السلطان بحبس الغلام، فشق ذلك عليه وهدد بقتل نفسه، وامتنع عن الطعام حتى أفرج عنه" (٣٢).

كان السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد ممن اشتهر عنه تقريب الممالك الحسان وعمل الفاحشة معهم، وكان أمراؤه متهمين بذلك أيضاً، وقد شاع إتيان الذكران فى عهده "حتى تشبه البغايا لبوارهن بالغلمان لينفق سوق فسوقهن" (٣٣).

والمنتبع لتاريخ سلاطين الممالك فى الدولة البرجية (٧٨٤هـ - ١٣٨٢م / ٩٢٢هـ - ١٥١٧) يجد كثيراً من الأخبار عن حياة الخلاعة والتهتك التى عاشتها البلاد فى ذلك العصر. (٣٤).

وتبع الممالك سلاطينهم فعاشوا فى ترف وبذخ بما لديهم من ثروات طائلة كشفت عنها كتب معاصريهم، فافقتوا الجوارى الحسان والغلمان الصباح والمغنيات من كل لون وجنس، وأخذوا من متع الحياة ولذاتها ما استطاعوا، بل تعدوا ذلك إلى ما فى أيدي الناس، فكثرت تعرض الممالك لبناتهم دون زاجر أو رادع.

وقد شاهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨هـ / ١٢٦٠) - (٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) ذلك بنفسه، عندما تذكر ذات يوم وخرج من القلعة ليلاً وطاف بالقاهرة ليتفقد أحوال الرعية، فرأى بعض الأمراء المقدمين وقد أمسك بامرأة وعراها من سراويلها، ولم يجسر أحد أن ينكر عليه ذلك (٣٥)، وذكر السبكي "أن واحداً من أمراء الممالك خرج مرة إلى الصيد فافتض هو ومماليكه من بنات أهل البر ما يزيد على سبعين بنتاً حراماً" (٣٦).

كما ذكر ابن الدوادارى فى حوادث عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م أن أخاً لأحد ولاة القاهرة، يدعى عمر المجنون، "تسلط على حريم المسلمين يأخذهن بيده من بيوتهن اغتصاباً" (٣٧).

ومال بعضهم إلى الغلمان، وبخاصة الأويراتية (٣٨) من التتار لجمالهم، وجعلوهم جمدارية لهم وشاع بينهم الشذوذ والفسق (٣٩).

وإذا كان هذا هو حال معظم سلاطين المماليك وأمرائهم ومماليكهم، فلا بد من أن يقلدهم شعبهم، فالناس على دين ملوكهم، ولذلك ظهر الفساد الخلقى والانحراف في حياة كثير من المصريين وتفشى الفجور في أنحاء البلاد. (٤٠).

البغاء في العصر المملوكي:

لم يكتف سلاطين البلاد بارتكاب المعاصي، وتهاونهم في ضبط سلوك المصريين ومراقبته والضرب على أيدي العابثين منهم، بل إنهم خطوا خطوة واسعة في طريق الرذيلة والانحطاط الخلقى، بأن جعلوا البغاء والدعارة مهنة تحظى برعاية الدولة. وفرضت على العاملين في هذه المهنة ضريبة معينة كانت تدر دخلاً كبيراً للخزانة السلطانية. (٤١).

وقد ظهرت هذه الضريبة مع ما استحدث من ضرائب منذ بداية دولة المماليك على عهد السلطان عز الدين أيبك (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م / ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م)، وذلك عندما عهد بالوزارة إلى الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفاتري (٤٢)، فأحدث في مصر مظالم كثيرة على الرعية (٤٣)، وضمن المنكرات من الخمر والمز (٤٤) والحشيش وبيوت الزواني بأموال، وسمى هذه الجهات بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية (٤٥).

وهكذا اعترفت الدولة بالبغايا، وضمنت لهن الحماية الرسمية نظير ما كن يدفعنه من ضرائب، وكان يطلق على من تزاول هذه المهنة اسم بنات الخطأ والخواطى (٤٦)، وجعلت الدولة لهؤلاء البغايا ضامنة عرفت باسم ضامنة المغانى (٤٧)، كانت بمثابة النقيب لمن يحترفن الدعارة (٤٨)، فكانت تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها لديها. وكانت هذه الضامنة تعهد بدفع مبلغ معين من المال إلى الدولة ثم تقوم هي بجمع ضريبة المغانى من النساء البغايا في مقابل حماية الدولة لهن. (٤٩) "فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة" (٥٠)، وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان مصر وبناتهم غاية الفساد (٥١).

وهكذا مهدت الدولة طريق الغواية والفساد لأبنائها، ففي ظل الحماية الرسمية من الدولة يقف الآباء عاجزين عن منع بناتهم من الانزلاق في تيار العهر والفسوق (٥٢)، مما يؤدي إلى التغرير بالإناث والتوسع في تجارة الرقيق الأبيض لإمداد بيوت الدعارة بالبغايا (٥٣).

كما أن حماية الدولة لبيوت الدعارة يتنافى مع الأخلاق والآداب؛ لأنه يضىء صفة الشرعية على ما تقوم به العاهرة من أعمال مشينة مما يحول دون توبة البغى، فضلاً عن تشجيع الرجال المستهترين على ارتياد هذه الأماكن الموبوءة، فبدلاً من أن تكون الدولة قوامة على الأخلاق، فإذا بها ترعى الرذائل وتشجع على ارتكاب الفواحش^(٥٤) وهو ما يتنافى مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغَى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٥٥).

وهكذا انتشر البغاء فى مصر المملوكية حتى وقفت البغايا "بالأسواق ومواضع الريب" لطلب الفاحشة تحت أعين المارة^(٥٦).

ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى، بل شمل بلاد الصعيد والوجه البحرى والأرياف^(٥٧)، حيث وجدت بتلك الجهات حارات للمغانى والبغايا يمارس فيها الفساد جهراً من زنا وشرب خمر ما يشنع ذكره، "حتى لو مر غريب بتلك المواضع من غير أن يقصد الزنا لألزم بأن يأتى بغياً من تلك البغايا ويكره على ذلك، أو يفقدى بمال يدفعه إليها حتى تقوم به مما عليها من الضريبة"^(٥٨) المقررة عليها كل يوم، ووجدت فى المدن أسواق من الخريات بنيت فيها منازل ذات طابق واحد وذات ترف لإشباع رغبات المنحرفين المترفين، ورغم صدور الأحكام من وقت لآخر بإبصارها إلا أنها كانت تعود مرة أخرى^(٥٩).

وكانت ضامنة المغانى تشتري الجوارى اللاتى يتمتن بصفات معينة؛ مثل الظرف وجمال الصوت وحسن الأداء فضلاً عن ملاحه الوجه، وكانت تتولى تدريبهن على الغناء على أيدي متخصصين^(٦٠). أما الجوارى المعدات للعمل فى الدعارة فكان يتدارسن الغواية والخداع وأساليب الدهاء للاستيلاء على قلوب الرجال اكتساباً للمال والهدايا^(٦١).

وكانت هناك أكثر من ضامنة، حيث وجدت ضامنة المغانى بمصر وبليبس^(٦٢)، وكان لمحترفات الدعارة فى العصر المملوكى زى خاص يعرفن به، فقد ذكر المقرزى فى حديثه عن سوق الشماعين أن حوانيت هذا السوق كانت تظل مفتوحة إلى نصف الليل "وكان يجلس به فى الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين، ولهن سيما يعرفن بها، وزى يتميزن به، وهو لبس الملاءات والطرح وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر، وكن يعانين الزعارة، ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم، وفيهن من تحمل الحديد معها"^(٦٣).

وكانت للبغايا طريقة مميزة في السير، إذ كن يمتشطن المشطة الميلاء، وقد جاء كراهيتها في الحديث الشريف^(١٤).

وأغلب الظن أن هؤلاء النساء اللاتي مارسن مهنة الدعارة في ذلك العصر كن مدفوعات تحت وطأة الظروف الاقتصادية السيئة والفقر والحاجة إلى امتهان هذه المهنة^(١٥)، إذ لم يجدن سبيلاً للارتزاق غير المضى في تيار العهر والفسوق^(١٦)، فلم يكن هناك بديل لبغائهن سوى الجوع، وهذا مما يدل على أن هؤلاء البغايا كن يعشن في تعاسة لا حد لها.^(١٧)

ولا شك في أن البغاء يعكس نظرة المجتمع تجاه المرأة في ذلك العصر، فلقد ظل الرجل يعتبر المرأة وسيلة للمتعة الشخصية أكثر منها شريكة للحياة^(١٨) في حين ظلت المرأة في نظر البعض محل ازدراء واستخفاف^(١٩)، فالجوبري يتحدث عن نساء عصره فيصفهم بالمكر والحيل وبأنهن عديمات المروءة والأمانة والحياء ولا يخفن شيئاً، ولذا قدرن على الأفعال الرديئة وتسلطن عليها فهن أقدر وأوصل إلى كل رذيلة من الرذائل^(٢٠).

والواقع أن طبيعة المرأة لا تبرر أبداً ما فرض على كيائها من تبخيس، فالفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة لا تقدم أى سند طبيعي لما يلحق بها من ظلم وقهر. فلم تحظ كما حظى الرجال في المجتمعات بوظائف ومكانة تكسبها منزلة رفيعة بل ظل المجتمع ينظر إليها كجسد فحسب دون أن يحيل للعقل مكانة كبرى^(٢١).

وقد ساعد وجود الجوارى بكثرة في مصر والشام وما قمنه من متعة جسدية على ترسيخ صورة المرأة في مجتمع ذلك العصر بالإضافة إلى أن كثرتهن قد ساعدت على انتشار الدعارة وبيوتها في مصر^(٢٢) فقد وجدت خواطئ فرنجيات تمارسن الدعارة بالإسكندرية^(٢٣)، وكانت المرأة العاهرة بلغة الفرنج تسمى بوطا^(٢٤).

الخمر والحشيش وأثرهما في انتشار البغاء:

ساعد على الانحطاط الخلقي في هذا العصر كثرة تعاطي الخمر والحشيش. أما عن الخمر^(٢٥) فقد انتشر تعاطيها بين طبقات عدة من المجتمع المصري، وعصرت في شتى أنحاء البلاد، وبيعت طوال العام، حتى إن ما عصر منها في خزانة البنود^(٢٦) في سنة واحدة بلغ اثنتين وثلاثين ألف جرة.^(٢٧)

وقد أشار كثير من الأوروبيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر إلى أن الخمر الجيدة الفاخرة كانت متوافرة في البلاد، وأنهم لم يلقوا صعوبة في الحصول عليها في أي وقت. (٧٨).

وقد عرفت مصر أنواعاً عدة من الخمر؛ منها الكروم، وكانت الإسكندرية من أهم مراكز صناعته، ويرجع ذلك إلى توافر مزارعه بضواحيها. (٧٩) كما كان النبيذ؛ يصنع من التمر والذرة (٨٠) وإلى جانب أصناف النبيذ الفاخرة كان عوام الناس يشربون أنواعاً من النبيذ مثل البوزة (٨١) والمزر والنيدة، كما كانوا يصنعون النبيذ من العسل (٨٢).

كذلك عرفت مصر في العصر المملوكي أنواعاً من الخمر؛ منها نبيذ القمح، ويصنع من لبن الخيل المخمر، وشغف به بعض السلاطين كثيراً. (٨٣) والتمر بغاوى الذى أحدثه الأمير تمر بغا المنجكي، وكان يصنع من الزبيب، وذلك بمزج عشرة أرطال من الزبيب بأربعين رطلاً من الماء، ثم يوضع المزيج في جرار تدفن في زبل الخيل أياماً حتى يتخمر. (٨٤) والقند وهو عسل قصب السكر إذا جمد. (٨٥).

وعرف عن بعض سلاطين المماليك ولعهم بشرب الخمر؛ منهم الملك المنصور أبو بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٨٦)، وكان الملك المنصور في مدة سجنه بالقلعة " لا يصحو من السكر ليلاً ولا نهاراً". (٨٧).

وما روى عن السلطان فرج بن برقوق من أنه كان يشق شوارع القاهرة عائداً من رحلة صيد وهو " لا يملك نفسه على فرسه من شدة السكر". (٨٨).

وحاكى أمراء المماليك سلاطينهم في تعاطي الخمر، بل وجاهر بعضهم بشربها أمام الناس. (٨٩).

وكان للنصارى واليهود شهرة في صناعة الخمر وتجاريتها، وكان يقع على عاتقهم مسئولية توفير ما تحتاج إليه حفلات السلاطين وكبار الأمراء من الخمر. (٩٠).

وقد أثرى صناع الخمر في ذلك العصر ثراء كبيراً، وليس أدل على ذلك من العثور على "مبلغ ثمانية وثلاثين ألف ومائتين وثلاثين ديناراً في مخزن خمار بثغر الإسكندرية حملت إلى السلطان". (٩١).

وانتشر شرب الخمر بين عامة المصريين، ولازمهم في حفلاتهم وفي أعيادهم وفي منزهاتهم.

وليس أدل على كثرة تعاطيها من قيام بعض سلاطين الممالك بتضمينها طمعاً في الحصول على كثير من الأموال، فأصبحت الخمر تمثل مصدراً كبيراً من مصادر دخل الدولة،^(٩٢) مما أدى إلى تفشي شرب الخمر وكثرة السكرى لزوال الإعراض عنهم.^(٩٣)

وكان لشرب الخمر أماكن خاصة بها عرفت بالخمرات، وكانت هذه الأماكن تدر على أصحابها أموالاً وفيرة.^(٩٤)

وكانت هذه الخمرات متواضعة؛ إذ لم تكن تحوى إلا البسط والنمارق التي يتمدد عليها الشاربون والدنان التي توضع فيها الخمرة والأباريق التي تفرغ فيها والكؤوس والقناني^(٩٥).

وكانت تضم بين جنباتها جوارى عرفن بجوارى الخمرات، وهؤلاء كن من جنسيات متعددة، وقد تفنن في إظهار جمالهن، وكن يقمن بسكب الخمر في الأقداح، كما يقمن بالغناء والرقص، إذا طلب منهن ذلك.^(٩٦) وفي ذلك يقول الشاعر:

يهيج وجدى غناء الغوانى

وصوت مثالثها والمثانى

ورقص القيان تجاه القناني

وتوقيعها مضرباً بالبنان^(٩٧)

وهؤلاء النساء كن يتوددن إلى أصحاب المال بالغواية حتى يوقعنهم في حبالهن ويسلبنهم أموالهم.^(٩٨)

أما الحشيش^(٩٩)، وهو نبات يعرف بالقنب^(١٠٠)، فقد اشتهر أكله في العصر المملوكى. وكان يزرع في أماكن عدة؛ منها بستان كافور فعرفت به، وفي ذلك يقول الشاعر:

وخضراء كافورية بات فعلها

إذا نفحتنا من شذاها بنفحة

غنيت بها عن شرب خمر معتق

وبالدلق عن لبس الحرير المزوق^(١٠١)

كما كانت تزرع بالموضع الذي يعرف بالجنينة من أرض الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق. (١٠٢).

والفقراء يستعملونها بطرق مختلفة، فمنهم من يطبخ ورقها طبخاً تاماً ويدعكه دعكاً جيداً باليد حتى يتعجن ويعمل منه أقراصاً، ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمصه ويفركه باليد ويخلط به قليلاً من السمسم المقشور والسكر، ثم يسفه ويطيل مضغه (١٠٣).

وقد قال عنها المقريزي: "ما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم"، وقال عنها بعضهم: إنها "تورث السفالة والردالة"، وإنها تخرج صاحبها إلى حد الرعونة (١٠٤).

على أن المقريزي يذكر أن الإقبال على تعاطي الحشيش قد زاد بشكل كبير في عام ٨١٥ هـ، "ولهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعائب، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة، وتحلوا بكل ذميمة من الأخلاق ورذيلة، فلولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية، ولولا الحس لما حكمت عليهم بالحيوانية". (١٠٥).

ولهذا فقد ربط المقريزي بين فساد طباع الناس في عصره وبين انتشارها، وقال بإنها اشتهرت عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق وبلاد الروم. (١٠٦).

ويبدو أن تعاطي الحشيش قد ظهر أيضاً في مجتمعات النساء فقد وصف ابن الوردي مليحة "مسطولة" فقال:

مليحة مسطولة إن لماتها فيما جرى
تقول كل طيبة ترعى الحشيش الأخضر (١٠٧)

مظاهر الانحلال الخلقي في مصر في العصر المملوكي:

اتسمت الحياة الاجتماعية في مصر في العصر المملوكي بمظاهر عدة تدل على المجون والخلاعة واللهو، وقد أشار ابن سعيد الأندلسي إلى كثير من هذه المظاهر فتحدث عن الحرية التي يتمتع بها الفقير من أهالي القاهرة "وقلة الاعتراض عليه في ما ذهب إليه نفسه، يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو صحبة المردان وما أشبه ذلك" (١٠٨)، كما تحدث مرة أخرى عن الخمر والموسيقى "وتبرج النساء العواهر" (١٠٩).

وهكذا انطلق بعض المصريين يأخذون بنصيبيهم من اللهو والمجون، فإلى جانب البيوت المخصصة للدعارة، وصف لنا المقریزی كيف مارس هؤلاء هذه الأعمال المشينة والمنافية للآداب في أماكن لهوهم ومنتزهاتهم.

فانتشرت على شواطئ النيل أماكن اتخذها أصحاب الفسق والخلاعة محلاً يمارسون فيه انحلالهم وفجورهم.

يقول المقریزی عند حديثه عن "بركة الرطلى"^(١١٠): "وصارت المراكب تعبر إليها [بركة الرطلى] من الخليج الناصري فتدورها تحت البيوت وهي مشحونة بالناس، فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف وتظاهر الناس في المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات وتبرج النساء الفاجرات واختلاطهن بالرجال من غير إنكار"^(١١١).

وقد قيل عنها:

بمصر لأهل اللهو والتهيه بركة تولع فيها بالحشيش أولو العقل
ويبلغ رطلاً كل من رام أرضها ومن أجل هذا سميت بركة الرطل^(١١٢).

وعند حديثه عن أرض الطباله ذكر المقریزی أن بها "بقعة تعرف بالجنيئة، تصغير جنة، من أخبث بقاع الأرض، يعمل فيها بمعاصي الله عز وجل، وتعرف ببيع الحشيشة التي يبتلعها أراذل الناس، وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوا زائداً، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعاً كثيراً، وتظاهروا بها من غير احتشام"^(١١٣).

وهناك ربع الزيتي، وكان يقع بجوار قنطرة الحاجب التي تقع على الخليج الناصري، "وكان يشتمل على عدة مساكن ينزلها أهل الخلاعة للقصص، فإنه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض وبساتين"، ويقول المقریزی: "وسمعت من أركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التي كانت فيه، وكانت العامة تقول في هزلها ستي أين كنتي وأين رحتي واين جيتي، قالت من ربع الزيتي"^(١١٤).

أما جزيرة حليلة، وكانت تقع ما بين بولاق والجزيرة الوسطى، فقد أطلق العامة عليها هذا الاسم، ونصبوا فيها عدة أخصاص، بلغ مصروف الخص الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة^(١١٥)، "وأقام أهل الخلاعة والمجون هناك، وتهتكوا بأنواع المحرمات، وتردد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس، حتى كادت القاهرة أن لا يثبت بها أحد"^(١١٦).

وكان الأمراء والأعيان يسرون إليها ليلاً ويجتمع فيها " من البغايا والأحداث وأنواع المسكرات ما لا يمكن حكايته، وانفق الناس بها أموالاً تخرج عن الحد فى الكثرة". (١١٧) .

فلما فشى أمر هذه الأخصاص طلب الأمير أرغون العلانى (١١٨) من الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون أن يأذن له بهدم أخصاص الجزيرة، فأذن له، فأمر والى مصر والقاهرة " فنزلاً على حين غفلة وكبسا الناس وأراقا الخمر وحرقا الأخصاص فتلّف للناس فى النهب والحريق وغير ذلك شئ كثير" (١١٩)، وكانت الخلجان فى نيل مصر من الأماكن التى يقصدها الفاسقون وطلاب المجون؛ مثل الخليج الناصرى الذى كانوا يقصدونه فى أيام النيل فيركبون المراكب للتتزه فيه، وقد أشار ابن سعيد بما رآه فيه من التجاهر بشرب الخمر وتبرج النساء العواهر، فضلاً عن وقوع حوادث قتل بسبب السكر. (١٢٠) .

وقد ظل الأمر على هذا حتى قتل الملك الأشرف شعبان وتولى الأميران برقوق وبركة أمر الدولة، فمنع الشيخ محمد المعروف بصائم الدهر فى عام ٧٨١ هـ/ ١٣٧٩م المراكب من الدخول إلى الخليج، وعلق سلسلة على قنطرة المقس لمنع دخول المراكب إليه (١٢١).

وكان الخليج الحاكمى أيضاً من المتنزهات التى يقع فيها من " الفساد والتظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر وآلات الملاهى والنساء المكشوفات الوجوه المتنزيات بأفخر زينة"، وكانت تنفق الأموال الكثيرة وتقع حوادث قتل عدة. (١٢٢).

وقد قام الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار فى سلطنة الناصر محمد الثانية بمنع المراكب والشخاتير (١٢٣) من دخوله منعاً للفساد. (١٢٤).

كما اتخذ الأرمن من خزانة البنود وكراً لبيع الخمر والدعارة، وكانت لديهم أماكن "لاجتماع الناس على المحرمات، فيأتيهم الفساق ويظلون عندهم الأيام على شرب الخمر ومعاشرة الفواجر والأحداث، ففسدت حرم كثيرة من الناس وكثير من أولادهم وجماعة من ممالك الأمراء فساداً شنيعاً، حتى إن المرأة إذا تركت أهلها أو زوجها أو الجارية إذا تركت مواليتها أو الشاب إذا ترك أباه، ودخل عند الأرمن بخزانة البنود لا يقدر أن يأخذه منهم، ولو كان من كان". (١٢٥).

ولم يكتف طلاب المتع والباحثون عن اللذات بارتداد الأماكن العامة بل أكثر من ذلك أنهم قصدوا الأديرة وأماكن التعبد التي أقيمت بعيداً عن ازدحام السكان وأعين الناس، طلباً للخمر أو النساء حتى يكونوا في مأمن من بطش الحاكمين.^(١٢٦) ومن هذه الأديرة دير القصير ويقع في أعلى جبل المقطم^(١٢٧)، ودير نهيا بالجيزة ويمتاز بجمال موقعه على النيل وقد قيل عنه:

يا دير نهيا ما ذكرك ساعة إلا تذكرت الشباب بمفرقى^(١٢٨)

ودير مرجنا، ويقع على شاطئ بركة الحبش، وكان يقصده أيضاً طلاب اللهو والطرب، بخاصة عند زيادة النيل، وقال عنه ابن عاصم:

وأقرأ على دير مرجنا السلام فقد أبدى تذكره منى صباباتي.
وبركة الحبش اللاتي ببهجتها أدركت ما شئت من لهوى ولذاتي^(١٢٩)

ودير طمويه، ويقع بإزاء حلوان، ويمتاز بجمال الطبيعة، "وهو أحد متنزعات مصر المذكورة ومواضع لهوها المشهورة"^(١٣٠). وقد ذكر ابن إلياس أن الأمير جكم خال العزيز توجه إلى الوجه البحري لهدم دير المغطس، وكان يقع عند الملاحات بالقرب من بحيرة البرلس وذلك لما كان يقع فيه من المنكرات التي لا توصف، فتكلم الشيخ محمد الطننتاوى في هدمه مراراً حتى هدم وبطل أمره.^(١٣١)

وكثيراً ما كان يصاحب الحفلات التي تقام في قصور السلاطين والأمراء تهتك وخلاعة، ففي الحفل الذي أقامه السلطان شعبان بن حسين ابن الناصر لظهور أولاده في المحرم عام ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م "ظهرت فيه من الفواحش والقبايح ما لا مزيد عليه، واستمر ذلك سبعة أيام" وكان قد انفق عليه أموالاً طائلة^(١٣٢).

ومن الاحتفالات العامة التي كان يقع فيها كثير من المفاصد دوران المحمل^(١٣٤). وقد نبه ابن الحاج على ما يقع في تلك الأيام من مفاصد وهتك للحرمة، فشدد على خروج النساء وذكر "أن النساء والرجال يخرجون ليلاً ونهاراً ويجتمعون في ليالي الزينة بعضهم مع بعض تحت ستر ظلام الليل، وكل من في قلبه مرض تيسر له ما يريده مما لا ينبغي بخلاف خروجهن إلى الأماكن البعيدة ... لأنه قد يكون في الناس من يشق عليه الخروج إلى تلك الأماكن فلا يجد سبيلاً لانتفاذ غرضه الخسيس، فإذا تيسر له ذلك في موضع قريب فعله، فكانت الزينة سبباً لتسهيل المعاصي وتيسيرها على من أرادها".^(١٣٥)

ولم تقتصر المفاصد فى ذلك اليوم على هذا فحسب إذ كثيراً ما تعرض المماليك لخطف النساء والصبيان من الطرقات. (١٣٦).

وكثيراً ما كانت الموالد التى تقام إحياء لذكرى أحد الشيوخ الصالحين مرتعاً لأعمال منافية للأداب من زنا ولواط وشرب خمر وفسوق ؛ من ذلك مولد الشيخ الأنباى (١٣٧). وكان ابنه يقيم له "مولداً" فى كل عام فى زاويته بناحية أبنوبة (إمبابه) من الجزيرة تجاه بولاق، فكان يحضره جمع كثير من القاهرة ومصر والضواحي والبلاد غير أن الأمر زاد عن الحد فى عام ٧٩٠ هـ فوقع فى المولد كثير من المفاصد والقبائح من كثرة النساء والفسق (١٣٨)، حتى إنهم وجدوا - فى اليوم التالى للمولد - فى المزارع وفى أجناب البحر مائة وخمسين من جرار الخمر الفارغة (١٣٩) فضلاً عما ذكر من حوادث الزنا واللواط والتجاهر بهما. (١٤٠).

وكذلك "مولد" السيد أحمد البدوى، وكان يقام فى طنطا (طنطا)، وكانت تجهز أماكن للفساد فى تلك الأيام لكثرة الجموع التى كانت تأتيه من شتى البقاع، فلما علم السلطان بالمخالفات التى كانت تصاحبه أمر بإبطاله " وبإبطال الموالد التى تقام بالأرياف؛ لما ينشأ عن ذلك من المفاصد" (١٤١)، وفى عيد الشهيد (١٤٢) - وهو من أعياد النصارى - كان يقام احتفال كبير يحضره الناس من كل مكان حتى يمثل البر بالخيّم والبحر بالمراكب المشحونة بالناس (١٤٣)، "ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد". (١٤٤).

وكان يباع فى هذا اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم. (١٤٥) وباع نصرانى فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر، وبوجه عام كانت تهدر أموال كثيرة، "ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس" (١٤٦).

وكان من وسائل التسلية المعروفة فى ذلك العصر مشاهدة خيال الظل (١٤٧)، فقد شغف به المصريون وكانت تمثيلياته التى عرفت باسم البابات تجتذب السلاطين والرعية معاً، وضمت قصور عدة بعض " المخاييلين" (١٤٨) الذين كانوا يقدمون عروض خيال الظل لساكنى هذه القصور. (١٤٩).

وقد اتخذه الناس وسيلة للتلهى والضحك، وجعلوه متنفساً لإبراز العيوب وتضخيم المساوى " (١٥٠).

ويعد الشيخ شمس الدين ابن دانيال الكحال ^(١٥١) صاحب أول نصوص تصلنا من خيال الظل، وتعد روايته طيف الخيال من أشهر مسرحيات خيال الظل. ويستهلها بالحديث عن الحملة التي قادها الظاهر بيبرس في عام ٦٦١ هـ/١٢٦٢م على الفساد والمفسدين، وتخريبه أماكن الدعارة والخمارات والخانات وآنية الخمر، وتشدده مع شاربها، وتعقبه طلاب المجون والخلاعة، مما أثار الذعر بينهم.

يقول في المقدمة: "لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية... فوجدت تلك الرسوم دارسة ومواطن الأنس بها غير آنسة وأرباب المجون والخلاعة عابسة، وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، وتولى الحراني والى القاهرة إهراق الخمر وحرق الحشيش وتبديد المزور واستتوب العلوق واللواطى، وحجر على البغايات والخواطى وتأذى الخلاع غاية الأذى، وطلب ابن الكازرونى وفي عنقه نيازية، ثم شاعت الأخبار ووقع الإنكار.." ^(١٥٢).

وقد اشتهر عن بعض السلاطين حبهم لمسرحيات خيال الظل في حين رآها البعض ^(١٥٣) من الأعمال المنافية للأخلاق والقيم الدينية؛ وذلك لأن كثيراً من تمثيلياتها تتضمن أقبح عادات المصريين في عبارات بذيئة وحركات شهوانية فاضحة، فضلاً عن الجنس الذى كان هو الموضوع المفضل لهذه التمثيليات وهذا مما ساعد على رواجها بين المصريين. ^(١٥٤).

وقد ظل ولع المصريين بمسرحيات خيال الظل حتى دخول سليم الأول مصر، وكان أن جلس هو الآخر للفرجة عليها، فأعجبته حتى إنه أنعم على المخايل بثمانين ديناراً وخلع عليه قفطاناً مخملاً ^(١٥٥) ومذهبا، وقال له: "إذا سافرنا إلى إسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك" ^(١٥٦).

الشذوذ الجنسي (اللواط) ^(١٥٧):

أسرف بعض المصريين فى التهتك والعهر، فعشقوا المردان، وفتن بعضهم بفتيان الأويراتية بحى الحسنية لحسنهم وجمالهم، وتغنى بعض الشعراء بذلك؛ منهم الشيخ تقى الدين السروجى الذى قال فيهم:

يا ساعى الشوق الذى مذ جرى جرت دموى فى أعوانه
خذ لى جوابا عن كتابى الذى إلى الحسنية عنوانه

يلقاك درب طال بنيانه
بحسنه تحسن جيرانه
عندى حديث طال كتمانها^(١٥٨)

امش قليلاً وانعطف يسرة
واقصد بصدر الدرب باب الذي
وسلم وقل بحسن قول له

استخدام البغاء في الجرائم:

استخدمت الدعارة أداة لارتكاب جرائم عدة؛ مثل جريمة السرقة والقتل. فقد عثر في خليج القاهرة في عام ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣ م على قتلى كثيرين، كما فقد جماعة من الناس ووقع الاشتباه في معارفهم. واستمر الحال على ذلك شهوراً عدة، ثم تبين أن امرأة حسناء تدعى غازية كانت تنزّين وتتبرج وتخرج كل ليلة ومعها عجوز وتطمع فيها كل من يراها، " فإذا رأت أحداً قد مال إليها بالنظر وتبعها تعرضت له وخاطبته في أمرها، وقالت له إنه لا يمكنها أن تجتمع بأحد إلا في منزلها خوفاً على نفسها، فمنهم من يحملها الغرض على موافقتها فينطلق معها"^(١٥٩)، فإذا ما وصل إلى بيتها انقض عليه رجلان جلدان فقتلاه وأخذ ما معه من مال وما عليه من ثياب، ولكي يبعدوا عن أنفسهم أية شبهة كانوا لا يستقرون في مكان واحد بل تنقلوا من مكان إلى آخر حتى انتهى بهم المطاف إلى أن سكنوا خارج باب الشعرية على الخليج.

وكان بالقاهرة ماشطة^(١٦٠) مشهورة فأنتهت العجوز وأوهمتها بأن لديها عروساً وتبغى أن تزنيها، وطلبت منها أن تحمل معها كل ما يلزمها من ثياب فاخرة وحلى إلى غير ذلك من الأشياء التي تلزم النساء عند الزواج^(١٦١) ووعدها بأجرة جيدة على أن تأتيها ليلاً، فخرجت إليها المشاطة بصحبة جاريتها، وقد حملت كل ما استطاعت من ثياب وحلى، فلما وصلت إليها صرفت الجارية، وعندما دخلت إليهم قتلوها، فلما شعرت جاريتها بتأخيرها ذهبت تسألهم عنها فأنكروها، فما كان منها إلا أن ذهبت إلى والي القاهرة وأخبرته بالواقعة فسار إلى دارهم وهاجمها وقبض على الفتاة والعجوز، وبالضغط عليهما أعترفتا على أنفسهما وعلى الرجلين، وكان أحد الرجلين قد أتى ليتفقد أحوالهما فقبض عليه وعوقب فدل على رفيقه، وكان لهم شريك آخر بجوارهم له قمين يحرق فيه الطوب فكانوا إذا قتلوا أحداً دفعوا به إليه ليحرقه في القمين، ويخفي أمره، فلا يشعر به أحد، "وأخرجوا من الدار حفيرة مملوءة قتلَى فطالعوا السلطان بأمرهم فسمروا"^(١٦٢) الخمسة في يوم واحد تحت القلعة ثم شفع بعض الأمراء في المرأة فأطلقت إلا أنها أقامت يومين ثم ماتت. ومن

النوادر التي تروى عنهم أنهم استدرجوا يوماً طبيباً مشهوراً بالقاهرة بحجة معالجة مريض لدهم، فلما دخل إليهم قتلوه " فلما سمروا قال أحدهم للنجار الذي سمره أرفق بى فإنى ضعيف فقال له النجار تريد نجيب لك طبيب آخر؟! ". وقد هدم بعض عوام القاهرة دارهم وبنى مكانها مسجداً بمأذنة عرف بمسجد الخناقة^(١٦٣).

وفى عهد السلطان المنصور قلاوون كانت هناك امرأة تستميل النساء وترغبهن فى عمل الفاحشة، فكانت تمضى بهن "إلى موضع" توهمهن أن به من يعاشرهن " فإذا وصلت إلى ذلك المكان انقض على الضحية رجال كانوا متفقين معها على ذلك وقتلوا وأخذوا ما عليها من ثياب، وذاع خبرها فى القاهرة وعرفت بالخناقة.

وقد استمر الحال على ذلك حتى أوقع بها الأمير علم الدين سنجر الخياط والى القاهرة فقبض عليها وسمرها^(١٦٤).

وظهرت امرأة بأرض الطبالة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م / ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م) كانت تفعل ذلك بالنساء فقبض عليها وسمرت مع أعوانها "فكانت تقول - وهى مسمرة يطاف بها على جمل فى القاهرة - إذا رأت النساء وهن يتفرجن عليها " آه يا قحاب لو عشت لكنّ لأفنيكن لكن ماعشت" ^(١٦٥).

وكما استخدمت بعض النساء البغاء فى الإيقاع بضحاياها استخدم بعض الرجال البغاء أيضاً للإيقاع بالعاهرات لأجل سرقتهن.

ففى ٢٩ من ربيع الآخر من عام ٨٥٧ هـ أمر السلطان بتوسيط ثلاثة من مماليك القاضى عبد الباسط منهم مملوك يدعى بلبان وذلك لأنهم كانوا يستدرجون بنات الخطأ من الجميلات لفعل الفاحشة ثم يقومون بقتلن للاستيلاء على ما عليهن من الثياب، وقد فعلوا ذلك مراراً حتى دل بعضهم عليهم فاشهروا فى القاهرة وأمامهم أقفاص وضعت فيها عظام القتلى من النساء الخواطى وكان يوماً مهولاً.^(١٦٦)

موقف سلاطين المماليك لمحاربة البغاء فى المجتمع المصرى:

رأينا كيف انغمست طبقات مختلفة من المجتمع المصرى فى ذلك العصر فى اللهو والخلاعة والمجون، فقد نظروا إلى الخلاعة على أنها متفناً لهم من الهم والكرب.^(١٦٧)

ولكن ماذا كان موقف سلاطين المماليك من انهيار الأخلاق وكثرة الفساد الذى ساد المجتمع المصرى؟.

يبدو أن الموقف الرسمى لدولة المماليك من انحراف سلوك كثير من المصريين ومجاهرتهم بشرب الخمر والحشيش وممارسة الدعارة قد ارتبط بظروف البلاد الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن شخصية من يتولى السلطنة وأخلاقه.^(١٦٧)

ففى أغلب الأحوال كان الناس يفسرون الكوارث الطبيعية التى كانت تصيب البلاد من أن آخر تفسيراً دينياً وأخلاقياً فيرجعون أسبابها إلى غضب من الله سبحانه وتعالى على الرعايا لانتشار الفسق والرذيلة، ولهذا كانوا يلجأون إلى الدين بالإكثار من الإقبال على العبادة والبعد عن المحرمات، وكانت تشن الحملات التفتيشية لمهاجمة أماكن اللهو والفساد ومستودعات الخمر والحشيش ومعاقبة من يرتادون هذه الأوكار بأشد العقوبات.^(١٦٨)

ولكن يجب ملاحظة أن هذه الإجراءات كانت مرتبطة بظروف الأزمة، فإذا ما انقضت وزال خطرهما عادت الأمور إلى ما كانت عليه فى السابق.^(١٦٩) ... ومع ذلك وجد بعض سلاطين المماليك الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تطهير المجتمع مما استشرى فيه من مفسد والضرب على أيدي العابثين فيه، وذلك بسن القوانين التى تحارب البغاء والخمر والحشيش وكل ما يؤدى إلى الانحلال الخلقي.

وأول هؤلاء هو السلطان الظاهر بيبرس، وقد عرف عنه "أنه لم يشرب خمرأ قط مدة حياته"^(١٧٠)، ولهذا استهل حكمه بمنع الخمر^(١٧١)، وتعقب متعاطيها، وسأوى فى المنع بين أمرائه ورعيته.^(١٧٢)

وأبطل ضمان الخمر فى عام ٦٦٢ هـ/١٢٦٣م، رغم ما كان يدره من دخل كبير لخزائنه قدر - فى القاهرة وحدها - بألف دينار كل يوم، ولكن السلطان لم يبال بذلك تقريباً إلى الله "فى اتباع أوامره والإيقاع بزواجه"^(١٧٣).

وفى العام التالى أبطل السلطان بيبرس المزر، وأمر بأن "تصفى آثاره وتخرّب بيوته وتكسر مواعينه ويسقط ارتفاعه من الديوان"^(١٧٤) وأمر بتعويض المقطعين عنه^(١٧٥).

ولكن يبدو أن الخمر لم تبطل تماماً من سائر أقاليم مصر، ولهذا فإن السلطان بيبرس شدد فى العام التالى على "إراقة الخمر وتصفية آثار المسكرات"^(١٧٦).

لقد أدرك السلطان بيبرس الأضرار التي تنتج عن تعاطي الخمر فتشدد في منعها^(١٧٧)، وجعل الحد على ذلك هو السيف، فلما قبض على الكاتب ابن الكازروني وهو سكران أمر بصلبه وفي عاتقه جرة خمر على باب النصر، وفي ذلك يقول ابن دانيال:

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا^(١٧٨)

وقال القاضي ناصر الدين أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية لما جاءتة المراسيم بالإسكندرية:

ليس لإبليس عندنا أرب غير بلاد الأمير ماواه
حرمة الخمر والحشيش معا حرمة ماءه ومرعاه^(١٧٩)

ولكن يدل تتابع صدور القرارات التي تحرم الخمر في سنوات ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م^(١٨٠)، ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م^(١٨١)، ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م^(١٨٢)، ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م^(١٨٣) / ٦٧٤ هـ^(١٨٤) على إصرار البعض على مخالفة قوانين السلطان ومعاودة شرب الخمر.

واستمر السلطان في تتبع المنكرات، فأبطل في عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م ضمان الحشيش من ديار مصر كلها^(١٨٥) وأحرقها^(١٨٦)، وأمر بتأديب أهلها^(١٨٧)، وفي ذلك يقول العلم ابن الصاحب أبو العباس أحمد يوسف:

في خمار الحشيش معنى مرامي يا أهيل العقول والأفهام
حرموها من غير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام^(١٨٨)

واستكمالاً لمحاربة الفجور والفسق عن سائر أنحاء دولته أمر بمنع النساء الخواطي من التعرض للبقاء في كل من مصر والشام^(١٨٩)، رغبة منه " في صيانة أعراض الناس وأموالهم وإصلاح ما تعمدته الملوك من فساد أحوالهم"^(١٩٠).

فظهرت البلاد من هذا الفساد، ونهبت الحانات التي يقيم بها أهل الخلاعة وسلب أهلها ونفى بعضهم^(١٩١). وكانت هذه الحانات تضم بين جنباتها الخواطي فمنع من ذلك^(١٩٢).

"وحبست الخواطى حتى يتزوجن، وكتب إلى جميع البلاد بذلك، وأسقطت الضرائب التي كانت مرتبة عليها". (١٩٣).

كذلك أمر السلطان بتطهير ثغر الإسكندرية من الخواطى الفرنجيات (١٩٤) مما يدل على أنه كان بالشعر عدد من نساء الفرنجة يمتن البغاء.

لقد التزم الظاهر بيبرس بسياسة التشدد في إزالة المنكرات من دولته طوال حياته وتتبع أهل الخلاعة والفسوق، حتى قيل إن إحسانه شمل جميع الطوائف ماعدا "أرباب الملاهى والمغانى، فإنه لم ينفق لهم فى أيامه سلع ولا نالهم منه رزق البتة" (١٩٥).

وفى ذلك يقول ابن دانيال الموصلى يرثى الخلاعة والمجون:

ارحلوا هذه بلاد عفاف وسعود الخلاع فيها نحوس
إن تمشى حزنا بجور زمان لا قحاب فيه ولا خندريس (١٩٦)

على أن ضمان الخمر قد عاد على عهد السلطان سيف الدين قلاوون فى شهر شوال من عام ٦٧٨ هـ / ١٢٨٠م مما أدى إلى المجاهرة بشرب الخمر وكثرة السكرى وزوال الاعتراض عليهم من قبل الدولة غير أن هذا الأمر لم يستمر طويلا فسرعان ما أمر الملك المنصور قلاوون "بإبطال الخمر وتعفية أثرها وأن لا تضمن ولا يتظاهرها بها". (١٩٧).

ثم صدر مرسوم فى عام ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م بإرابة الخمر وإبطال هذه الجهة الخبيثة فبطلت. (١٩٨).

ويبدو أن النساء قد أكثرن من الخروج بالليل والاختلاط بالرجال، وعادت من جديد أماكن الدعارة والفساد على عهد السلطان قلاوون، ولهذا نقرأ فى التذكرة التى كتبها القاضى أبو عبد الله محمد بن المكرم بن أبى الحسن الأنصارى الكاتب للأمير زين الدين كتبغا المنصورى فى عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م ضوابط على النساء؛ منها: "منع خروجهن فى الليل، وألا يجتمعن بالرجال فى ليالى الجمع بالرافتين وتمنع النساء من ذلك، أما الأماكن التى يجتمع فيها الشباب وأولو الدعارة ومن يتعانى العبث والزنطرة فلا يفسح لأحد فى الاجتماع بها فى ليل ولا نهار، ويكفون الكف التام بحيث تقوم المهابة وتعظم الحرمة وينزجر أهل البغى والعبث والعيث". (١٩٩)

وعلى الرغم من أنه لا يحل للمكارية أن ينقلوا أية امرأة يعرف أنها ماضية لارتكاب معصية فإنه يبدو أن بعض المكارية في هذا العصر لم يكونوا يهتمون إلا بالأجرة المرتفعة، ولهذا كانوا لا يكارون " إلا الفاجرات من النساء والمغانى منهن لمغالاتهن في الكراء، فإنهن يعطين من الأجرة فوق ما يعطيه غيرهن". (٢٠٠).

كما تشدد أيضاً السلطان حسام الدين لاجين في منع المحرمات وحد في الخمر بعض أولاد الأمراء. (٢٠١)

وفى أثناء سلطنة الناصر محمد الثانية ٦٨٩هـ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م أبطل الأمير بيبرس الجاشنكير - استادار السلطان (٢٠٢) - عيد الشهيد، وكان من أعياد النصارى الشهيرة، وكان يقع فيه " من الفجور والفسق والمجاهرة بالمعاصي أمر عظيم"، فأبطله ورفض كل مساعي النصارى لإعادته (٢٠٣).

وبعد أن تولى الأمير بيبرس الجاشنكير السلطنة قام في عام ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩م بإبطال الخمرات وتتبع مواضع الخمر في مصر والقاهرة لكسر ما بها من جرار الخمر فكبست بيوت كثيرة للأمراء فضلاً عن الكتاب والأجناد والتجار فمن وجدوا عنده خمر أراقوه. وكبست أيضاً دور لليهود والنصارى وأريق ما بها من الخمر، " فأزال الله بذلك فساداً كبيراً". (٢٠٤).

وبرزت الأوامر السلطانية إلى السواحل بإبطال الخمر (٢٠٥)، وأمر بيبرس بإبطال الزواني، وخربت بيوتهم، وكسرت آلاتهم، وكان ذلك من حسنات بيبرس (٢٠٦) على أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان قد خطا خطوة واسعة في محاربة البغاء وإبطال المحرمات، فلقد كان الناصر محمد " يكره شرب الخمر ويعاقب عليه ويبعد من يشربه من الأمراء عنه " (٢٠٧).

ولهذا كان قراره بإلغاء المكوس الظالمة التي كانت تؤخذ على هذه الجهات المنكرة، فأبطل ما كان يأخذه مهتار الطلبخانة (٢٠٨) السلطانية بمصر والقاهرة من البغايا والمنكرات والفواحش، " وذلك أنه كان له دار تسمى دار الزعيم، ولهم ناس يدورون على جوارى الناس وعبيدهم يفسدونهم ويهربونهم، فإذا هربت الجارية أو العبد يأتون إلى تلك الدار بظاهر باب زويلة فيعطون خمسين درهماً حتى يعيدوه إليه وأشياء غير ذلك قباح ذكرها.. " (٢٠٩)، وكان يجمع من هذه الضريبة جملة كثيرة. (٢١٠)

وأبطل ضمان تجيب بمصر^(٢١١)، وأبطل رسوم الولايات والمقدمين، "وكانت جهة تتعلق بالولاية والمقدمين فيجيبها المذكورين من عرفاء الأسواق وبيوت الفوايح ولهذه الجهة ضامن وتحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم، وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح"، فضلاً عما كان يقع من هتك الحرم ومهاجمة لبيوت الناس وإظهار الفوايح فأبطل ذلك كله. (٢١٢).

وأبطل حقوق القينات، وهى ما يجمع من الفوايح والمنكرات والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة، فيؤخذ من كل رجل أو امرأة مقرر معين. (٢١٣)

وأبطل ضمان المغانى وكانت أموالا تؤخذ من النساء البغايا نظير غض طرف الدولة عنهن، وكان يتحصل منها أموالا عظيمة. (٢١٤)

وأبطل السلطان الخمر والفوايح بالسواحل^(٢١٥)، وتشد في عام ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م فى إبطال الفوايح وزوجت ألوف من الخواطي. (٢١٦) ثم رسم السلطان فى عام ٧٢٤ هـ/١٣٢٣ م بإبطال الملاهى بالديار المصرية وحبس جماعة من الخواطي. (٢١٧).

وقد تولى والى مصر قديدار^(٢١٨) مسئولية مراقبة تنفيذ قرارات السلطان، ففتح كل من عصر خمرًا، وأحضر عريف الحمالين وأمره بإحضار كل من كان يحمل العنب، فلما حضروا أمامه طلب منهم أن يذكروا له أسماء الذين يشترون العنب وأماكن إقامتهم، وأحضر خفراء الحارات والأخطاط ليدلوه على كل من عصر الخمر، فخاف الناس وتخلصوا مما لديهم من خمر بإلقائها فى البلاليع والأقبية وألقوها فى الأزقة، وبذلوا المال لمن يأخذها منهم حتى صارت جرة الخمر تباع بدرهم، "ويمر الناس بأبواب الدور والأزقة فترى من جرار الخمر شيئاً كثيراً ولا يقدر أحد أن يتعرض لشيء منها".

وتتبع الأمير قديدار مواضع الحشيش فهاجم خط باب اللوق وأخذ منه شيئاً كثيراً من الحشيش وأحرقه عند باب زويلة. واستمر والى القاهرة فى إراقة الخمر وإحراق الحشيش حتى طهر الله البلاد منهما، "وتتبع الزعار وأهل الفساد فخافوه وفروا من البلد". (٢١٩) وهدمت أماكن كانت تدار أوكاراً للفساد وبنى مكانها جامعاً. (٢٢٠).

وعندما تولى الأمير الملك^(٢٢١) على عهد السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون تشدد في تحريم الخمر بمصر والقاهرة وكان أول ما بدأ به هو هدم خزانة البنود^(٢٢٢)، وكان الأمر قد حولها إلى حانة داخل القاهرة، وصار يجتمع بها الفاسقون والبغايا ويفعل بها من المعاصي والفجور ما يفوق الحد. وكان يعصر بها الخمر ويباع طول السنة، وقيل إنهم عصروا في سنة واحدة اثنين وثلاثين ألف جرة خمر، "وكان يباع الخمر بها على رعوس الأشهاد ولا يجسر أحد على إنكار ذلك".^(٢٢٣)

وتحدث الأمير الملك في أمرهم إلى السلطان الناصر محمد أكثر من مرة، وبين له ما كان جرى من فساد في خزانة البنود غير أن السلطان لم يجبه بشيء، فلما ألح في الطلب غضب السلطان، وقال له: "يا حاج كم تشتكى من هؤلاء إن كان ما يعجبك مجاورتهم انتقل عنهم"^(٢٢٤)، فصعب ذلك عليه وانتقل إلى ظاهر الحسنية وعمر له بها داراً وأنشأ بجانبه جامعاً وحماماً وريعاً وحوانيت^(٢٢٥). فلما تولى نيابة السلطنة تكلم في أمرها مع السلطان، فرسم له بخرابها، فأرسل إليها والى القاهرة وأمره أن يحتاط على ما بها من خمر وبغايا ويخرج من فيها من الأسرى النصارى ويريق ما بها من خمر ويخربها ويجعلها دكا، ففعل ذلك وهدمها،^(٢٢٦) وأنشأ مكانها مسجداً للعبادة^(٢٢٧) وحكر الناس أرضها وبنوها دوراً وطواحين وغيرها.^(٢٢٨)

وقد وصف المؤرخون تخريب خزانة البنود بأنه كان يوماً مشهوداً، "وأمرها أعظم من فتوح عكا مما كان جرى فيها من الفواحش".^(٢٢٩)

وكما فعل ذلك بخزانة البنود أمر والى القاهرة أن يفعل مثل ذلك ببيوت الأسرى فى القلعة، فسار إليها وحطم جرار الخمر بها وأخرج سكانها من القلعة وأنزلهم مع نصارى خزانة البنود بجوار الكوم بين جامع ابن طولون ومصر، فنزلوه واتخذوا به مساكناً لهم.^(٢٣٠)

وتتبع الأمير الملك الفواحش والخواطى^(٢٣١)، فمنع الناس من ضرب خيامهم على شاطئ النيل بالجزيرة وغيرها، وكان يقع فى هذه الأماكن فساد كبير لاختلاط الرجال بالنساء وتعاطيهم المنكرات^(٢٣٢).

وشدد الأمير أملك على من يشرب الخمر، "ونادى من أحضر سكرانا أو أحداً معه جرة خمر خلع عليه، ففقد العامة لشربة الخمر بكل طريق"، وأتوه بجندى سكران فضربه وقطع خبزه وخلع على من قبض عليه. (٢٣٣)

وكان لهذه السياسة أثرها، فكف الناس عن أشياء كثيرة كانوا يفعلونها حتى قال عنه بعض الشعراء:

آل ملك الحاج غدا سعدة يملأ ظهر الأرض فيما سلك
فالأمرء من دونه سوقه والمملك الظاهر هو آل ملك (٢٣٤)

وعلى الرغم من إلغاء ضمان المغانى على عهد السلطان الناصر محمد فإن وزراء السوء كانوا يعيدونه نظراً لكثرة ما كان يتحصل منه من أموال.

فلما كان عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون تكلم فى إلغاءه قاضى القضاة الشافعى برهان الدين بن جماعة لأنه كان من القبايح الشنيعة. (٢٣٥).

فأصدر السلطان أوامره فى عام ٧٧٨ هـ/١٣٧٦م بإبطال ضمان المغانى والأفراح بجميع أعمال مصر من أسوان إلى العريش (٢٣٦). وصدرت الأوامر بغلق كل من الخليج المصرى وبركة الرطلى بوضع سلسلة لمنع دخول المراكب إليها وذلك لما كان يقع من مفاسد ومنكرات من اجتماع الناس هناك، وفى هذا يقول الشاعر:

أطلقت دمعى على خليج مذ سلسلوه فصار يقفل
من رام دهرنا عجيباً فلينظر المطلق المسلسل (٢٣٧)

ومن المحاسن التى عدّها المؤرخون للظاهر برقوق إبطاله ضمان المغانى فى عام ٧٨٢ هـ/١٣٨٠م بحماه والكرك والشوبك ومنية ابن خصيب وزفتا. (٢٣٨).

ويبدو أن الأسرى النصارى الذين نزلوا بالكوم بين جامع ابن طولون ومصر قد عادوا لما كانوا عليه من عصر الخمر وبيعها، فقد أمر الأمير يلبغا الناصرى فى عام ٧٩١ هـ/١٣٨٨م بمهاجمة بيوتهم هناك وأخذ ما بها من جرار الخمر، كما هوجمت الحارات التى كان يباع فيها الخمر وحملت على الجمال والبغال وكسرت بالرميلة (٢٣٩) تحت اصطبل السلطان وقلعة الجبل. (٢٤٠).

وفى بعض الأحيان كانت الدولة تنتظر إلى المرأة على أنها السبب المباشر لوقوع الفتن والمفاسد، ولهذا كانت تسن القوانين لمنع خروج النساء. (٢٤١).

فعندما رأت الدولة أن كثرة خروج النساء بلا حياء إلى القرافة (٢٤٢) قد نتج عنه مفاسد كثيرة وتهتك مع الرجال، أصدرت القرارات التى تمنع خروجهن إلى القرافة يوم العيد، مثلما حدث فى عام ٧٩٣ هـ/ ١٣٩٠م. وتوعدت " أى مكارى أركب امرأة وسط بلا هواة وأى امرأة وجدت ماشية وسطى" (٢٤٣). وتكرر منع النساء من الخروج إلى المقابر فى عامى ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩م، ٨٣٥ هـ/ ١٤٣١م " وتوعد المكارى بالشنق والمرأة بالتغريق"، وكان ذلك إثر ظهور الطاعون. (٢٤٤).

لقد كان انتشار الأوبئة كالطاعون يفسر بفساد أخلاق الناس وانشغالهم بأمور اللهو والفساد (٢٤٥)، فعندما ظهر الوباء فى مصر عام ٨٤١ هـ/ ١٣٤٧م خاف السلطان برسباى من أن يصاب به فعقد مجلساً بالقلعة حضره بعض الفقهاء ومشايخ الإسلام والقضاة وسألهم عن الأسباب التى يعاقب الله بها الناس بالطاعون، فقال له بعضهم: إن الزنا إذا تقشى بين الناس ظهر بينهم الطاعون، "وإن النساء يتزين ويتبرجن ويمشين فى الطرقات مهتوكات لم يخف منهن غير رقعة وجههن وغالبهن سافرات الوجوه".

فأمر السلطان بمنع خروج النساء إلى الأسواق " فلما منع أن يمنعن يرفع الطاعون". ولم يكتف السلطان بإصدار هذه القوانين بل أكثر من هذا أنه عهد بالحسبة لدولات خجا الذى عرف بقسوته وعدم رحمته وكثرة جبروته وشدة عقوبته، فهدد من خالفت هذا النداء بالقتل، وشددت المراقبة على الطرقات فمن وجدت خارج بيتها ضربت وحبست حتى امتنعت النساء عن الخروج. (٢٤٦).

وفى عام ٧٩٣ هـ/ ١٣٩٠م منعت النساء والرجال من ركوب المراكب للتنزه والفرجة فى النيل وهدد من فعل ذلك " بالتغريق والتوسيط"، فامتنع الناس عن التظاهر بالفسق والفجور (٢٤٧)، وصدرت الأوامر فى عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠م بإقامة الخمور فتوجه الأمير يلغا السالمى الاستادار إلى شبرا وكسر ما بها من جرار، وكذلك فعل فى منية الأمراء وطنان وبلبيس وبعض الحارات فى القاهرة، وقيل: " إن جملة ما كسره منها يقارب خمسين ألف جرة". (٢٤٨).

كما أريقت الخمر في عام ٨٢٢ هـ/١٤١٩م وكبست أماكن الفساد بالقاهرة، وشددت الأوامر على النساء بمنع دخولهن جامع الحاكم، حيث كان يقع فيه من القبايح والمفاسد الشيء الكثير " من النساء والرجال والشباب والصبيان". (٢٤٩) واتخذت إجراءات مشددة في عام ٨٢٧ هـ/١٤٢٣م للحد من البغاء في مصر فصدرت الأوامر بإلزام البغايا بالزواج وأن لا يزداد في مهورهن عن أربع مائة درهم من الفلوس تعجل منها مائتان وتؤجل مائتان، " ونودي بذلك فلم يتم منه شيء". (٢٥٠).

واستمرت سياسة السلطان برسباي في إراقة الخمر من جميع البلاد، فأريقت جرار كثيرة منها في عام ٨٣١ هـ/١٤٢٧م وكان أكثرها بدمياط، ومنع الفرنج بالإسكندرية من بيع الخمر التي جلبوها معهم وألزموا بإعادتها إلى بلادهم (٢٥١)، "وشدد في المنع من عصير الزبيب" (٢٥٢)، وتتبع الأمير قرقماس حاجب الحجاب مواضع الفساد وأراق الخمر وحرق الحشيش وهدم الحانات وبيوت الفسق ومنع الاجتماع في أماكن الفساد (٢٥٣).

وبلغت أوانى الخمر التي كسرهما حوالى عشرة آلاف جرة، وعندما أراق الخمر على الأرض قال قائل في هذا المعنى:

الخمر قد بددوه في الأرض طولا وعرضا.
ما كنت أرضى بهذا يا ليتنى كنت أرضا (٢٥٤).

وهذا مما يدل على أن الخلاعة والمجون والفسوق صارت جزءاً من كيان المجتمع المصري.

واستمر التشدد على منع الخمر حتى أحرق السلطان في عام ٨٣٧ هـ/١٤٣٣م معصرة لبعض المماليك حتى عفا أثرها. (٢٥٥).

وعندما تزايد الطاعون بمصر في عام ٨٤٨ هـ/١٤٤٤م لجأ المحتسب إلى " تخفيف الفساد وسع إمكانه رجاء ارتفاع هذه النازلة تأسيساً بمن مضى قبله " غير أنه لما توجه إلى معاصر الخمر ببولاق هاجمه العبيد هناك ورجموه بالحجارة وسبوه ولعنوه فسارع بالهرب. ويعقب السخاوى على ذلك بقوله: "وباليتها كانت القاضية إذ الفساد من قبله كان أعم والله يعلم المفسد من المصلح" (٢٥٦).

وكان لاضطراب بعض قرارات السلطان أثرها في تزايد الفساد، ففي حين يأمر السلطان جقمق في عام ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م بسد باب خوذة جسر شبای المطل على بركة الرطلى وانتقال سكانه منه لكثرة ما كانوا يفعلونه من تهتك وفحش، يعود بعد أيام ويأذن لهم بالعودة إلى مساكنهم، وهذا مما أدى إلى الزيادة في التهتك وإظهار الفرج والسرور والمجاهرة بالمناكير والخمور، "وصنيعهم هذا شبه المأذون فيه بخلافه أولاً". (٢٥٧).

ومرة أخرى يغلق السلطان باب درب الخولى بالقرافة عام ٨٥٥ هـ/١٤٥١م، وذلك لما علم بما كان يقع فيه من مفاسد. (٢٥٨).

وكان الببای وزير السلطان الظاهر خشقدم ٨٦٥-٨٧٢ هـ/١٤٦١-١٤٦٧م كثيراً ما يكبس البيوت في بركة الرطلى أثناء زيادة النيل ويفتش عن المنكرات، "فمن وجده بيسكر إن كان رئيساً صادره وسلب نعمه، وإن كان غير ذلك أدبه وكان يكره من يسكر مطلقاً"، فكرهه الناس وهجوه حتى قال بعضهم:

قالوا الببای قد وزر فقلت كلا لا وزر
الدهر كالدولاب لا يدور إلا بالبقر (٢٥٩).

وفي عام ٩١٠ هـ أمر السلطان قانصوه الغورى بمهاجمة بيوت النصارى وكسر ما لديهم من جرار الخمر وحرق أماكن الحشيش والبوزة. (٢٦٠).

وقد تزامن هذا مع إبطال نائبه في الشام الخمارات، والتنبية على أهل الذمة بعدم التجاهر بالخمر. (٢٦١).

يتضح لنا مما سبق أن ممارسة الدعارة والتهتك والفجور استمرت حتى آخر العصر المملوكى، فعندما انتشر الطاعون في عام ٩١٩ هـ/١٥١٣م نادى السلطان بمنع بيع النبيذ والحشيش والبوزة ومنع النساء الخواطى من عمل الفاحشة، واستمر هذا النداء لمدة ثلاثة أيام متتالية لتزايد الطاعون. (٢٦٢).

وروى الذهبى عن القاضى شهاب الدين أحمد الموفى الشافعى المتوفى عام ٩٢٧ هـ/١٥٢١م أنه عندما ولى قضاء بلدة منوف العليا قام بطرد البغايا من تلك الناحية وأزال المنكرات (٢٦٣). ولكن كيف كانت عقوبة جريمة الزنى في العصر المملوكى؟.

تشير النصوص التى لدينا إلى أن دولة المماليك لم تلتزم بتطبيق حكم الشرع على مرتكبى هذه الجريمة. ففي عام ٨٢٠ هـ/١٤١٧م زنى أحد النصارى بامرأة مسلمة واعترف الاثنان بجريمتهما فرجما بظاهر باب الشعرية وأحرق النصرانى ودفنت المرأة. (٢٦٤).

فى حين أنه فى عام ٨٤٤ هـ/١٤٤١م عندما زنى يهودى متزوج بيهودية نجا الاثنان من عقوبة الرجم بفضل تدخل بعض أصحاب النفوذ وقد أثار ذلك استنكار المؤرخ المقرئى "فكان هذا من شنيع ما حكم به فى زمننا" (٢٦٥).

وفى عهد السلطان قانصوة الغورى زنى رجل بامرأة واعترف بالزنى فلما أحضرا أمام السلطان أنكرا اعترافهما فعقد السلطان مجلس حضره القضاة الأربعة والعلماء فأفتى أحدهم بصحة الرجوع مما أغضب السلطان على القاضى شمس الدين الزنكلولى الحنفى وولده، فأمر السلطان بضربهما فضربا حتى ماتا.

وأمر بشنق الزناة على باب ابن ابى شريف فشنقا وعزل القضاة الأربعة. (٢٦٦).

وعوقبت إحدى بنات الخطأ فى الشام بأن تخوزق، وأن يخوزق الرجل الذى كان معها. (٢٦٧).

الخاتمة

... رأينا كيف عدت دولة المماليك البغاء مصدراً لتمويل خزانة الدولة بالمال، وفي سبيل ذلك اعترفت بالبغياء، ووفرت لهم الحماية ورعت العاهرات تحت مظلتها.

وكانت هذه البدعة الجديدة التي سنتها دولة المماليك هي الآفة التي ولدت مع قيام هذه الدولة، ولكنها للأسف لم تمت بسقوطها بل ورثتها للحكومات التي قامت بعد ذلك في مصر، فلم تدرك هذه الحكومات أن هذه الأموال التي يدرها البغاء لخزانتها ما هي إلا معاول هدم لهذه الدول؛ لأنها تهدم الشباب والرجال من أبنائها، وهؤلاء هم عماد الدول وصناع مستقبلها.

وكما قال الشاعر أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

من أجل هذا حرم الإسلام البغاء بكل صورته، كما حرم تعاطي المسكرات من خمر وحشيش، فكل هذه المنكرات تؤدي إلى هدم المجتمعات الإسلامية وتنتشر فيها الانحلال والزنا، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾^(٢٦٨)، صدق الله العظيم.

- (١) محمد علم الدين: التربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٩-٢٠.
- (٢) نجية إسحق عبد الله: سيكولوجية البغاء، ط أولى، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢٤، ويعرف هاريمان Harriman مفهوم البغاء بأنه "الاتصال الجنسي مقابل أجر". انظر: نفسه ص ٢٠.
- (٣) ابن منظور: لسان العرب، ط أولى، تحقيق إبراهيم الزبيق، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١٤، ص ٧٧-٧٩.
- * مريم آية ٢٨.
- وجاء في حديث عمرو بن العاص: "إني والله ما تأبطنتي الإماء ولا حملتني البغايا في غبرات المائى"، والبغايا جمع بغى مفعول بمعنى فاعله من البغاء..
- (٤) الفرقان: الآيات ٦٨، ٦٩، وجزء من الآية ٧٠.
- (٥) قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّكَاةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، الإسراء: الآية ٣٢. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، العنكبوت: من الآية ٤٥.
- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾، الأنعام: من الآية ١٥١.
- (٦) النور، من آية ٣٣.
- (٧) شمس الدين الذهبي: كتاب الكبائر، القاهرة، ١٣٩٦هـ، ص ٣٨.
- (٨) صحيح مسلم: حديث رقم ٨٦.
- (٩) انفرد به أحمد بن حنبل من كتاب باقى مسند الأنصار، حديث رقم ٢٥٦٠٠.
- (١٠) محمد فريد جنيدى: البغاء، ط أولى، القاهرة، ١٩٣٤م، ص ٣٥.
- (١١) نجية إسحق عبد الله: مرجع سابق، ص ١٧، ١٨.
- (١٢) عفيف عبد الفتاح طيارة: الخطايا فى نظر الإسلام، ط ٦، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٧٤.
- (١٣) نفسه، ص ٧٧، ٨١.
- (١٤) النور: آية ٢، وهذه الآية تدعو إلى عدم الرأفة بالزناة، وتدعو إلى إقامة هذه العقوبة فى جمع من المؤمنين ليكون ذلك عبرة لغيرهم.. وهذا بالنسبة لعذاب الزانية والزانى فى الدنيا، إذا كانا عازبين؛ أى غير متزوجين، فإن كانا متزوجين فإنهما يرجمان بالحجارة حتى الموت.
- انظر: شمس الدين الذهبي: مصدر سابق، ص ٣٦.
- (١٥) محمد فريد جنيدى: مرجع سابق، ص ٣٠.
- (١٦) محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٥٩.
- (١٧) أحمد صادق الجمال: الأدب العالمى فى مصر فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٣٣. وانظر أيضا د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢٢٥-٢٢٦.
- (١٨) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٠٥.
- (١٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ط دار الكتب المصرية، ١٣٥٨هـ، ج ١٠، ص ١٢.

(٢٠) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ط القاهرة، ١٩٧١م، ج ٢، قسم ٣، ص ٥٦٧.

أبو المحاسن: مصدر سابق ص ١٢.

(٢١) أبو المحاسن: نفسه، ج ١٠، ص ص ٩٦ - ٩٧.

(٢٢) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط حيدر آباد الدكن، ج ٢، ص ١٩١.

(٢٣) أبو المحاسن: مصدر سابق، ج ١٠، ص ١٤٠.

وقد وصفه بأنه " كان من أشد الملوك ظلماً وعسفاً وفسقاً ".

(٢٤) نفسه: ج ١٠، ص ١٢٨.

المقریزی: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٧٠٣.

(٢٥) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤.

(٢٦) ولیم مویر: مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢٧) أبو المحاسن: مصدر سابق، ج ١٠، ص ١٦٩.

(٢٨) أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ١٠، ص ص ٣١٥ - ٣١٦.

لقد استخدم الشاعر أسلوب التورية مستعيناً بأسماء السور القرآنية لنقد هذا السلطان الذي انشغل بالنساء عن أمور دولته.

(٢٩) نفسه، ج ١١، ص ٧.

وذكر أنه كانت للسلطان جوقه كاملة من الجوارى زيادة على عشرة جوار من المغانى، وأنه "كانت العادة على تلك الأيام، أن كل سلطان أو ملك يكون له جوقه من المغانى عنده فى داره". انظر: نفسه، ص ٨.

ابن إياس: بذائع الزهور فى وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٨٢م، ج ١، قسم ١، ص ٥٩٣.

(٣٠) جمدارية: الجمدار هو الذى يتولى إلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله جاما دار وهو مركب من جاما أى الثوب فى الفارسية، ومن دار أى ممسك.

انظر: السبكي: معبد النعم ومبيد النقم، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٣٥، حاشية ٤.

(٣١) محمد زغلول سلام: مرجع سابق، ج ١، ص ٥٢.

وقد أشار السبكي إلى ذلك، فقد ذكر أن " أكثر ما يكون الجمدارية صبيانا مرداً ملأحاً تتعاناهم الملوك، وكذا الأمراء، ويكونون بالنوبة مع المخدم يلزمونه حتى وقت نومه، وقد تناهت الرغبة فيهم لاستيلاء شهوة المرد الملاح على قلوب أكثر أهل الدنيا، وصارت الجمدارية تتنوع فى الملابس المهيجة للشهوات ويتزينون، فيربون فى ذلك على النساء ويقتنون الناس بجمالهم " .

انظر: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٩٤، ص ٢٩٥.

(٣٣) المقریزی: مصدر سابق، ج ٣، قسم ٢، ص ٦١٨.

(٣٤) انظر على سبيل المثال: سلطنة الناصر محمد الثاني بن قايتباي الذي اتسم عصره بالشذوذ، وكان المغنون والمغنيات هم رفاقه وصحبته، انظر: ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ط دار الكتب، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٤٠٣. ومع هذا نجد مؤرخاً معاصراً هو ابن الشحنة، ت ٩١٠هـ، يكتب عنه كتاب البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر (محمد بن قايتباي) وفيه يشيد ببضائله ومحاسنه، وهذا مما يدل على انهيار القيم والأخلاق في ذلك العصر.

(٣٥) المقریزی: مصدر سابق، ج ١، ص ٥٤٠.

(٣٦) معبد النعم، ص ٥٢.

(٣٧) ابن إياس: صفحات لم تنتشر من بدائع الزهور، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٥٥.

ووصف أبو المحاسن الأمير بشنك الناصري (ت ٧٤٢) - وكان من أجل ممالك السلطان الناصر محمد بن قلاوون - بأنه كان "غير غفيف الذيل عن الملبح والقبیح وبالغ في ذلك وأفرط حتى في نساء الفلاحين وغيرهم". انظر النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٩.

(٣٨) الأويراتية: طائفة من التتار الوثنيين فروا صوب مصر خوفاً على انفسهم من غازان محمود إيلخان مغول فارسى الذى اعتنق الإسلام، وقد رحب بهم السلطان العادل كتيبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٦م) وأمر الأمراء والجند بالخروج لاستقبالهم وأقطعهم الإقطاعات الوفيرة، وأجرى عليهم الأرزاق السخية وأنزلهم بالحسينية.

انظر سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٠٧.

(٣٩) محمد زغول سلام: مرجع سابق، ج ١، ص ٥٨.

وقد نبه السبكي لخطورة ذلك، وقال: "حرام على جمدار يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينصب نفسه لهذا الغرض وأن يتشبه بالنساء فيما خلقن له، وليس له أن يمكن مخدمه من أن يتلو ط به، ولا أن يقبله، فليتبئ الله ربه وليرحم شبابه، فالدنيا عند الله أقل من ذلك كله".

انظر: المصدر السابق، ص ٣٦.

(٤٠) أحمد صادق الجمال: مرجع سابق، ص ٣٣.

(٤١) قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، عصر سلاطين المماليك، ط ثانية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٣٩.

وقد وصفه بأنه "كان من أشد الملوك ظلماً وعسفاً وفسقا".

(٤٢) هبة الله بن صاعد: هو شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى، ويلقب بالأسعد، وأصله من الأقباط ثم أسلم ورقى من الخدم حتى ولى الوزارة للملك المعز أيك، فكان محظياً عنده لا يفعل شيئاً إلا بعد مشاورته، وكان يكاتبه بالملوك، وبعد قتل المعز أيك وزر لولده الملك المنصور أياماً ثم قبض عليه سيف الدين قطز وصادته، وقال القاضى برهان الدين السنجارى، دخلت عليه الحبس فسالنى أن اتحدث فى إطلاقه على أن يحمل فى كل يوم ألف دينار، فقلت له كيف تقدر على هذا فقال، أقدر إلى تمام سنة وإلى سنة فخرج الله فلم يلتفت ممالك المعز إلى ذلك وعجلوا هلاكه فخنق وحمل إلى القرافة فدفن بها". وللبهاء زهير الكاتب فيه قبل أن يسلم البيتان الآتيان:

وأباه فصاعداً

لعن الله صاعداً

واحداً ثم واحداً

وبنيه فننازلاً

توفى عام ٦٥٥ هـ.

انظر اليونينى: ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن، ١٩٥٤م، ج ١، ص ٨٠ - ٨٢.

ابن دقماق: نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام، ط بيروت، ١٩٩٩م، ص ٢٣٣.

الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط بيروت، ١٩٩٩م، ج ٤٨، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

أبو المحاسن: النجوم، ج ٧، ص ٥٨.

- (٤٣) ابن دقماق: نزهة الأنام، ص ٢٠٢.
- (٤٤) المزمر: شراب يصنع من القمح.
- انظر: المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، ١٩٨٧، ج ١، ص ١٠٥.
- (٤٥) المقرئزي: نفسه، ج ٢، ص ٩.
- المقرئزي: السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٣٨٤.
- ابن دقماق: نزهة الأنام، ص ٢١٢.
- (٤٦) ابن إياس، صفحات لم تنتشر، ص ٩.
- المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٠٦.
- (٤٧) وهى غالبا من البغايا اللاتي كبرن وكسدت بضاعتهن. انظر محمد فريد جنيدي: مرجع سابق، ص ١١٣، حاشية ٢.
- (٤٨) قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١٤٠، وكانت ضامنة المغانى مسئولة أيضا عن حرف نسائية أخرى تناقض البغاء، فقد كانت مسئولة عن المغنيات والواعظات والقارئات والندابات. انظر: قاسم عبده قاسم، مرجع سابق، ص ١٣٩.
- (٤٩) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، ج ٢، ص ٧٢٨.
- "وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لأبد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نقش امرأته من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف".
- انظر المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٠٦.
- وكان يدور على بيوت المغانى فى كل ليلة "جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من بات منهم خارج بيتها".
- انظر: ابن إياس: بدائع، ج ١، قسم ٢، ص ١٦٦.
- ويبدو أن هؤلاء الضامانات كانت لديهن ثروات ضخمة حصلن عليها من مصادر متعددة، ففى عرس السلطان شعبان بن الناصر محمد عام ٧٤٦ هـ "بلغ نصيب ضامنة المغانى بمفردها ثمانية آلاف درهم". انظر: المقرئزي: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٦٩١، وكانت ضامنة المغانى تقوم بجمع أرباب الملاهى لاستقبال السلاطين أو الأمراء عند عودتهم من السفر، انظر: نفسه، ج ٢، قسم ٣، ص ٨٥٠.
- وكفرد من أفراد المجتمع المصرى عانت ضامانات المغانى من الأزمات الاقتصادية حتى اضطر الوزير فى وباء عام ٧٤٩ هـ أن يحط عنها ثلث ما عليها لانعدام الأفراح والأعراس.
- انظر: نفسه ج ٢، قسم ٣، ص ٧٨٣.
- كما تعرضن أيضا للمصادرات مثلما حدث فى عام ٧٤٨ هـ. انظر: نفسه، ج ٢، ص ٣، ص ٧٤٦.
- وفى عام ٩١٨ هـ صودرت رئيسة المغانى وكانت تدعى هيفة اللذيذة وكان بعض خصومها ادعى عليها - عند السلطان بأن لها أموالا طائلة فقبض عليها السلطان وسجنها وعذبها وقرر عليها مبلغ خمسة آلاف دينار، فتوسط لها القاضى بركات بن موسى فدفعت ألف دينار باعت فى سبيلها جميع ما تملكه وقسطت عليها خمسمائة دينار على أن تدفع منها مائة دينار كل شهر. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٨٥.

- (٥٠) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٠٦.
- (٥١) ابن إياس: مصدر سابق، ج ١، قسم ١، ص ٤٨٦.
- (٥٢) محمد فريد جنيدى: مرجع سابق، ص ٤٥.
- (٥٣) نجية إسحق عبد الله: مرجع سابق، ص ٤٧.
- (٥٤) د. حسن الساعاتى: مشكلة البغاء في الإقليم الجنوبي، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، أعمال الحلقة الأولى لمكافحة الجريمة، ص ٢٥.
- (٥٥) النحل: آية ٩٠.
- (٥٦) المقرئى: السلوك، ج ٤، قسم ١، ص ٤٨٦.
- (٥٧) المقرئى: نفسه، ج ٣، قسم ١، ص ٢٦٦.
- ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ط ٢، بيروت، ١٩٨٦، ج ٢، ص ص ١٩١، ١٩٢.
- (٥٨) المقرئى: السلوك، ج ٣، قسم ١، ص ٢٦٦.
- ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٩٢.
- ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ٢، ص ١٦٧.
- (٥٩) جاك. س. ريسلر: الحضارة العربية، طبعة الدار المصرية للتأليف، ص ٦٠.
- (٦٠) على السيد على: الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية، ١٩٨٨م، ص ص ٨٧، ٨٨.
- (٦١) جبور عبد النور: الجوارى، ط دار المعارف، ١٩٤٧، ص ٥٦.
- (٦٢) أبو المحاسن: النجوم، ج ١، ص ص ١٤٩ - ١٥٠، فقد ذكر أن ضامنة مصر اشترت جارية تدعى اتفاق من ضامنة بلبس ودفعت فيها دون الأربعمئة درهم، وعلمتها ضرب العود على يد على العجمى فبرعت فيه وقدمتها الضامنة لبنت الناصر محمد فشغف بها الملك الصالح إسماعيل وتزوجها وولدت منه، ثم شغف بها بعده أخوه الكامل شعبان، ثم السلطان حاجى. انظر أيضاً ابن حجر العسقلانى: الدر الكامنة، ج ١، ص ٨٠.
- (٦٣) الخطط، ج ٢، ص ٩٦، فى حين كانت نساء المدينة يخرجن محجبات، وكانت توجد أشكال متنوعة من الحجب؛ وهى المفتنة والقناع والنقاب، وبذل ظهور المرأة بدون قناع بين الناس على فقرها الشديد، انظر: ل. أ. ماير، الملابس المملوكية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٣٠. وقد لفت خروج النساء سافرات الوجه أثناء زلزال عام ٧٠٢ هـ اهتمام المؤرخين فأشاروا إليه.
- (٦٤) ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٦٣٧.
- (٦٥) د. محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية، ط القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٤٨.
- محمد فريد جنيدى: مرجع سابق، ص ٣٢.
- (٦٦) أ.ب كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ط القاهرة، ص ٦٢٨.
- يمثل الاتجاه الاقتصادى أحد التفسيرات المتعددة التى يفسر بها الباحثون ظاهرة البغاء حيث ترى وجهة النظر الاقتصادية أن معظم البغايا يأتين من أسر فقيرة ذات مكانة اقتصادية منخفضة فيكون البغاء وسيلة للكسب تلجأ إليها المرأة للحصول على احتياجاتها الضرورية طالما لا تجد أية وسيلة أخرى للكسب، فالبغاء طريق للحصول على المال لا يحتاج إلى تعليم أو تدريب أو رأس مال فهو وسيلة سهلة ومربحة بالمقارنة بأى عمل آخر.
- انظر: نجية إسحق عبد الله: مرجع سابق، ص ٥١.

- (٦٧) عفيف عبد الفتاح طيارة: الخطايا في نظر الإسلام، ص ٧٣،
محمد فريد جنيدى: مرجع سابق، ص ٦٤.
- (٦٨) لويس إسكندر: الأسرة ومشاكلها الاجتماعية، القاهرة، ١٩٤٤م، ص ١٤.
- (٦٩) أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ٢٥.
- (٧٠) المختار في كشف الأسرار، القاهرة، ص ٨٧. ويقول: " وهذا القول في الحرائر وأما المباحات فإن
لهن أمورا قباحا لا يمكن شرحها"، انظر ص ٩٠.
- (٧١) نجية إسحق عبد الله: مرجع سابق، ص ص ٤٠، ٤٤.
- (٧٢) على السيد على: المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢.
- (٧٣) المقرئى: السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٦٠٠.
- (٧٤) النويرى السكندري: كتاب الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة
الإسكندرية، ط الهند، ١٩٦٨م، ج ١، ص ٨.
- (٧٥) حارب الإسلام شرب الخمر بأنواعها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ
وَالْأَسْلَافُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُفَوِّعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ المائدة الآيات ٩٠، ٩١، وجاء فى
الحديث الشريف: " كل مسكر خمر وكل خمر حرام ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات ولم يتب منها
وهو مدمنها لم يشربها فى الآخرة ". وفى ذكر من لعن فى الخمر قال ﷺ: " لعنت الخمر بعينها
وشاربها وساقياها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وأكل ثمنها" انظر
الذهبي: كتاب الكباثر، ص ص ٥٥، ٥٧.
- (٧٦) خزنة البنود: بناها الخليفة الظاهر الفاطمى بين قصر الشوق وباب العيد لخزن أنواع البنود من الرايات
والأعلام عدا أنواع السلاح والآلات الحربية وكان بها ثلاثة آلاف صانع مبرزين فى سائر الصنائع
وبها مدرسة لتعليم مماليك الفاطميين أنواع العلوم وفنون الحرب من رماية ومطاعنة ثم احترقت تلك
الخزانة بما فيها من أنواع المتاع عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م وتحولت بعد هذا الحريق إلى حبس للأمرء
والوزراء والأعيان فلما زالت الدولة الفاطمية اتخذها سلاطين بنى أيوب سجنا تعتقل فيه الأمرء
والمماليك ثم جعلوها منازل للأسرى من الفرنج واستمرت مخصصة لهذا الغرض فى العصر المملوكى
حتى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. انظر: المقرئى الخطط، ج ١، ص ٤٢٣، وما بعدها.
- (٧٧) محاسن محمد الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ١٩١.
- (٧٨) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٢٣١.
- (٧٩) عمر عبد العزيز عمر: مجتمع الإسكندرية فى العصر العثمانى، مقال ضمن كتاب مجتمع الإسكندرية
عبر العصور، الإسكندرية، ١٩٧٥م، ص ٣٢١.
- (٨٠) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، القاهرة، ج ٥، ص ١٤٤.
- (٨١) البوزة: شراب يتخذ من الأرز أو الشعير أو الذرة العويجة.
انظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٠، حاشية ٣.
- (٨٢) راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ط أولى، القاهرة، ١٩٤٨م،
ص ١٨٤، وكانت النيدة تصنع من القمح والشعير.

- (٨٣) المقرئى: السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٦٠٧.
- (٨٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ط القاهرة، ١٩٦٩م، ج ١، ص ٤٨٧.
- المقرئى: السلوك، ج ٣، قسم ٢، ص ٨٢٦.
- (٨٥) أبو المحاسن: النجوم، ج ١٠، ص ٧، حاشية ٢.
- (٨٦) انظر: أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٢.
- (٨٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ١، ص ٥٩٣.
- (٨٨) أبو المحاسن: مصدر سابق، ج ١٣، ص ١٠٠، وأيضاً ج ١٣، ص ١٣٧.
- (٨٩) انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة ج ١، ص ٥٠٠ ترجمة: بهادر المنصورى، وكان من أكابر الأمراء بمصر وكان مولعاً بشرب الخمر ويتجاهر بها. وذكر السخاوى فى حوادث عام ٨٤٩ هـ أن جماعة من المماليك المفسدين يزيد عددهم عن العشرين هاجموا بيوت النصارى لأخذ ما بها من خمر ولكن النصارى دافعوا عن بيوتهم وقتلوا ثلاثة من المماليك، انظر: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ص ١٢٣-١٢٤.
- وانظر أيضاً عن إسراف بعض أمراء المماليك فى شرب الخمر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ١٨١، ص ٥١١.
- (٩٠) محاسن الوقاد: اليهود فى مصر، ص ص ١٩٣، ١٩٠.
- (٩١) المقرئى: السلوك، ج ٣، قسم ٢، ص ٨٥٣.
- (٩٢) نفسه ج ٢، قسم ٣، ص ٦٤٧.
- وعن ضمان الخمر فى القاهرة ومصر وحدهما انظر: النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، القاهرة، ١٩٩٠م، ج ٣٠، ١٨١.
- ابن شداد تاريخ الملك الظاهر، فيسباند، ١٩٨٣م، ص ٣٠٠.
- (٩٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، ط أولى، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٥٨.
- (٩٤) ابن حجر العسقلانى: الدر الكامنة ج ١، ص ٥٠٩.
- (٩٥) جبور عبد النور: الجوارى، ص ٣٩.
- (٩٦) نفسه، ص ٥٢.
- (٩٧) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، بيروت، ١٩٣٦م، ج ٧، ص ١٠٦.
- (٩٨) جبور عبد النور: مرجع سابق، ص ص ٥٣-٥٦.
- (٩٩) يدخل فى قوله ﷺ: "كل مسكر خمر" الحشيشة؛ لأنها تفسد المزاج والعقل وتحرض متعاطيها على ارتكاب الفجور والفسق، انظر الذهبى: الكبائر، ص ص ٥٨، ٥٩.
- (١٠٠) يقال إن أول من استعمله الشيخ حيدر من خراسان (ت ٦١٨ هـ)، وكان قد خرج يوماً منفرداً بنفسه إلى الصحراء وقد اشتد الحر ثم عاد وقد علا وجهه النشاط والسرور بخلاف ما كان يعهد من حاله، فإنه أخذ يحدث أصحابه ويؤانسهم فسألوه عن السبب فقال خرجت إلى الصحراء وحدي فوجدت كل شيء من النبات لا يتحرك إلا نباتاً له ورق فجعلت أقطف منه وأكل فحصل عندي من الارتياح ما شاهدتموه وكان هو القنب وقد نصح أصحابه باستعماله فاستعملوه فاشتهر أمره بالعراق ووصل إلى الشام ثم إلى مصر، وهناك من ينسبها إلى أهالى الهند ويقولون إنهم أول من استعملوها، انظر: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ص ١٢٦-١٢٧.

(١٠١) المقرئى: نفسه، ج ٢، ص ٢٥، فالشاعر يصفها بخضرة اللون وينسبها إلى البستان الكافورى وأنها تفعل فى العقول ما تفعله الخمر المعتقة وأن رانحتها تدب فى الأعضاء والمفاصل وأنه غنى بها عن شرب الخمر وأنه ليس فى حاجة إلى أن يرتدى أجمل ملابسه بل يستعيز عنها بالدلق الذى تعود الصوفى ارتداه.

انظر: د. أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية فى الألبين الفاطمى والأيوبي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٦.

(١٠٢) المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٢٨.

(١٠٣) نفسه.

(١٠٤) نفسه، وضمها بعضهم وأخذ يعدد عواقبها الوخيمة فالحشيش كما يراه يؤدى إلى البغاء أو الجنون أو مرض من الأمراض العقلية؛ يقول:

لحا الله الحشيش وأكلها
كما تسبى كذا تضى وتشقى
وأصغر دائها والداء جم
لقد خبثت كما طاب السلاف
كما يشقى وغايتها الخراف
بغاء أو جنون أو نشاف

انظر: أحمد صادق الجمال: الأدب العامى فى مصر المملوكية، ص ٦٣.

(١٠٥) المقرئى، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٩.

وذكر الذهبى أن قاضى الحنفية جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الملطى المتوفى عام ٨٠٣ هـ كان قد أفتى بجواز أكل الحشيش.

انظر: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ط بيروت، ١٩٧٩م، ج ٧، ص ٤٠.

(١٠٦) المقرئى: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٦.

(١٠٧) على السيد محمود: الجوارى، ص ٤٨.

(١٠٨) ابن سعيد: النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، تحقيق: حسين نصار، ط دار الكتب، ١٩٧٠م، ص ص ٢٩ - ٣٠.

(١٠٩) نفسه، ص ٣١.

(١١٠) بركة الرطللى: هذه البركة من جملة أرض الطبالة عرفت ببركة الطوابين لأنه كان يعمل فيها الطوب. والطبالة كانت فى مكان الفجالة وبركة الرطللى كانت بمنطقتها وكان فى شرقها زاوية بها نخل كثير وفيها شخص يصنع الأبطال فنسبت إليه ولما حفر الناصر محمد الخليج الناصرى وجرى الماء منه ودخل إلى هذه البركة عمل الجسر بين البركة والخليج فحكره الناس وبنوا فوقه الدور، انظر: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٦٢.

(١١١) نفسه.

(١١٢) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، ط دار الكتب، ١٩٦٩م، ص ٢١١.

(١١٣) المقرئى: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٦.

(١١٤) نفسه، ج ٢، ص ٧٨.

(١١٥) الدراهم النقرة: وتكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس.

انظر القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ط دار الكتب، ج ٣، ص ٤٣٩.

- (١١٦) المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٨٧.
- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ص ١٢٨-١٢٩.
- (١١٧) المقرئى: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٧٠٣.
- (١١٨) أرغون العلانى: هو الأمير سيف الدين أرغون العلانى رأسى نوبة الجمدارية تمكن من الدولة في عهد الصالح إسماعيل وكثرت إقطاعاته وأمواله وفي عهد الملك الكامل شعبان زادت سعادته وظلت أموره تسيير حتى خلع الكامل شعبان وضرب الأمير أرغون في وجهه ضربة هائلة بطبر (بفاس) ثم إنه اعتقل بالإسكندرية في أول دولة المظفر حاجى وظل في الاعتقال حتى قتل في عام ٧٤٨ هـ.
- انظر الصفدى: أعيان العصر وأعيان النصر، ط دمشق، ١٩٩٨م، ج ١، ص ص ٤٥٦، ٤٥٧.
- (١١٩) المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٨٧.
- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٣٠.
- (١٢٠) ابن سعيد: مصدر سابق، ص ٣١.
- المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٤٤.
- (١٢١) المقرئى: نفسه، ج ٢، ص ١٥٠.
- (١٢٢) نفسه، ج ٢، ص ١٤٣.
- (١٢٣) الشخاتير: يعرفها النويرى السكندرى، فيقول: "والشخاتير واحدتها شخورة، وهو برسم تعديّة الناس من الشط إلى الآخر في إبان زيادة النيل واختراقه من مصر إلى الجيزة، ومن الجيزة إليها، والنيل يركب أراضى مصر إبان زيادته فلا يتوصل إلى قراها إلا في الشخاتير".
- انظر أحمد مختار العبادى، والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، القاهرة، ١٩٩٣م، ج ١، ص ٢٤٩.
- (١٢٤) المقرئى، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٤٣.
- السخاوى: التبر المسبوك، ص ١٢.
- (١٢٥) المقرئى: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ص ٦٤٠، ٦٤١.
- (١٢٦) د. أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمى والأيوبي، ص ١٠٧، د.أس. تربتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٧٠، وعن ذلك كتب الشاعر إبراهيم المعمار المتوفى عام ٧٤٩هـ، زجل عبر به عما كان عليه المصريون من خلاعة ومجون وتحاييلهم على تحرير السلاطين للتهتك وشرب الخمر باللجوء إلى الأديرة بحثا عن الخمر والعشق هناك، انظر الزجل فى: ابن إياس بدائع، ج ١، ص ص ١٠٦، ١٠٧.
- (١٢٧) الشابشتى: الديارات، ط ٣، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٨٤.
- (١٢٨) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ١٠٧.
- الشابشتى: مرجع سابق، ص ٢٩٤.
- (١٢٩) الشابشتى: المرجع السابق، ص ص ٢٨٩ - ٢٩٠.
- (١٣٠) نفسه: ص ٢٩٨.
- (١٣١) ابن إياس: بدائع، ج ٢، ص ١٨٣.

(١٣٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٥٢.

(١٣٣) دوران المحمل: هو احتفال سنوي اعتاد المماليك إقامته في القاهرة فكانت كسوة الكعبة توضع على جمل مزين يطوف القاهرة والفسطاط وكان المحمل يدور مرتين في العام؛ الأولى في نصف رجب والأخرى في شوال، وقد حرص المصريون على المشاركة في هذا الاحتفال فكان على أصحاب الحوانيت التي يمر بها المحمل تزيينها وتحشد الجموع لمشاهدة الموكب الذي يمر من باب النصر حتى ميدان الرميطة تحت القلعة، انظر: نظير سعداوي: صور ومظالم من عصر سلاطين المماليك، ص ص ٧٩ - ٨٣.

قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاقتصادي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢٩٦، والجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أدار المحمل بمصر عام ٦٥٧هـ.

انظر: المقرئزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص ١١.

(١٣٤) المدخل إلى تنمية الأعمال لتحسين النيات والتتبيه على بعض البدع والفوائد، القاهرة، ١٩٢٩م، ج ١، ص ص ٢٧٢ - ٢٧٥.

(١٣٥) مثلما حدث في عام ٨٣٢ هـ انظر ابن إياس، بدائع، ج ٢، ص ١٢٤.

(١٣٦) الشيخ يوسف سطوحى، وكانت له سمعة بابنوبة من أعمال الجيزة وبنى له زاوية بها وكان ابنه إسماعيل قد اشتغل بالعلم الشريف على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، فلما توفى والده الشيخ يوسف انقطع بزاوية والده وصار يعمل المولد في كل سنة.

انظر: ابن الفرات: تاريخه، مجلد ٩، ص ٤٢.

(١٣٧) نفسه.

(١٣٨) ابن الفرات: تاريخه، ج ٩، ص ٢٧، ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٨٤، المقرئزي: السلوك، ج ٣، قسم ٢، ص ٥٧٦، فى حين يذكر ابن الصيرفى أن جرار الخمر الفارغة زادت عن ألف جرة، انظر: نزهة النفوس، ج ١، ص ١٦٩.

(١٣٩) ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٤، ٢٨٥، المقرئزي: مصدر سابق، ج ٣، قسم ٢، ص ٥٧٦، ابن الصيرفى: مصدر سابق، ج ١، ص ١٦٩، ويقال إن الشيخ إسماعيل أمر بإبطال المولد على أثر وقوع هذه الحوادث، انظر: ابن حجر: نفسه، ص ٢٨٥.

(١٤٠) السخاوى: التبر المسبوك حوادث عام ٨٥١ هـ، ص ص ١٧٦-١٧٧.

(١٤١) عيد الشهيد: وفيه كانوا يخرجون إلى ناحية شبرا فى ثامن بشنس آخر شهور القبط فيلقون فى النيل تابوتا من الخشب فيه أصبع يزعمون أنه لأحد الحواريين وأن النيل لا يزيد إلا بوضع الأصبع فيه. انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٥٠٤.

(١٤٢) العين: عقد الجمان، ج ٤، ص ٢٦٨.

(١٤٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٦٩.

(١٤٤) المقرئزي: السلوك، ج ١، قسم ٣، ص ص ٩٤١، ٩٤٢.

ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ١، ص ٥٦٥.

(١٤٥) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٦٩.

(١٤٦) خيال الظل: يقال إن خيال الظل لعبة هندية قديمة عرفت في مصر في العصر الفاطمي فكانت ضمن ملاهي القصر، وهي عبارة عن بيت مربع مصنوع من الخشب كان يكسى بالخيش أو نحوه من الجهات الثلاث ويسدل على الجهة الرابعة ستر أبيض يشد من جهاته الأربع شداً محكماً على الأخشاب وفيه يكون ظهور الشخص فإذا أظلم الليل دخل اللاعبون هذا البيت ويكونون عادة خمسة منهم غلام يقلد النساء وآخر حسن الصوت للغناء ويقوم اللاعب بتحريك الشخص بعودين من خشب الزان. وكانت الشخص تصنع من جلود البقر ثم يصبغونها بالألوان وكان هناك الحيوانات والأشجار، فإذا ما عرضت الصور أمام ضوء النهار التي كانوا يشعلونها بين اللاعبين وبين الشخص ظهرت الصور واضحة زاهية.

انظر: أحمد تيمور: خيال الظل، القاهرة، ١٩٥٧، ص ص ١٩-٢٢.

(١٤٧) المخاليين: جمع مخايل، وهو الرجل الذي يدير لعبة خيال الظل، انظر سعيد عاشور: العصر المماليكي (فهرست المصطلحات)، ص ٤٦٩.

(١٤٨) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ص ١٣٨-١٣٩.

(١٤٩) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، ج ١، ص ٢٩١.

(١٥٠) ابن دانيال الكحال: ألف ثلاث تمثيلات هي طيف الخيال وعجيب وغريب والمتميم وتعتبر هذه التمثيلات عن الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك، وهي روايات تمتاز بالهزل والمجون وقد توفي عام ٧٤٠ هـ، انظر سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٦، حاشية ٢.

(١٥١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ١، ص ٣٢٦ ومابعد.

(١٥٢) مثل السلطان الظاهر جقمق الذي أمر في عام ٨٥٥ هـ بإبطال اللعب بخيال الظل وأحرق جميع شخصه ونبيه على اللاعبين بالآ يعودوا إلى اللعب به مرة أخرى، وقد فعل ذلك لكثرة المفاصد في عصره، انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٩٢.

أبو المحاسن: حوادث الدهور، ج ١، ص ١١٧.

(١٥٣) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٣٩، منها لعبة علم وتعبير ولعبة الحمام ولعبة القهوة وهذه اللعبة مما يتحاشون لعبها في الأعراس لما فيها من المجون والألفاظ المخلة بالأدب.

انظر عنهم أحمد تيمور: خيال الظل، ص ص ٢٣-٢٨.

(١٥٤) المخمل ذو الوبر المعروف الآن بالقטיפه. انظر: أحمد تيمور، مرجع سابق، ص ٢٣، حاشية ٢.

(١٥٥) أحمد تيمور: خيال الظل، ص ٢٣.

(١٥٦) اللواط: أمر بشع عده الله سبحانه وتعالى من الكبائر لأنه خروج عن الفطرة التي خلق الناس عليها وقد جاء ذكر هذه الجريمة الشنعاء في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَتَرَوْنَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَنْزَالِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ الشعراء الأيتان: ١٦٥-١٦٦. وقد حارب الإسلام جريمة اللواط بأقصى العقوبات لما فيه من جنابة على قدسية الجنس والمرأة والأسرة فقال ﷺ "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به"، وقد ذكر القرآن قصة قوم نبي الله لوط عليه السلام الذين انتشرت فيهم هذه الفاحشة ولم يستمعوا لتحذير نبيهم، فأرسل الله ملائكته فجعلوا على قريتهم سافله وأمطر عليهم زيادة في العذاب حجارة متتابعة محرقة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾ (هود: ٨٢)، أما نبي الله لوط عليه السلام فقال سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَتَجِيءُ مِنَ الْقُرَىٰ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَاسِقِينَ﴾، (الأنبياء: ٧٤)، انظر الذهبي: الكبائر، ص ص ٣٩ - ٤٠، عفيفي عبد الفتاح: الخطايا، ص ص ٨٧-٨٨.

- (١٥٧) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، ج ١، ص ٢٦٢.
- (١٥٨) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٥٥٢.
- مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ج ١، ص ١٢٤.
- (١٥٩) الماشطة: هي التي تقوم بترزين العروس وإعدادها يوم زفافها وذلك بتمشيط شعرها وتزيين وجهها بكافة الوسائل حتى تبدو العروس في أجمل صورة.
- انظر قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٦٦.
- (١٦٠) كان نظام التأجير شائعاً وكانت الماشطة تحضر إلى حفلات الزفاف ومعها مختلف أنواع الزينة والملابس إذا لزم الأمر، كما كانت البسط وأنواع الفرش تستأجر في مثل هذه المناسبات.
- انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، القاهرة، ١٩٤٧م، ج ٢، ص ص ٢٨٥-٢٨٦.
- (١٦١) التسمير: عقوبة يعرى فيها المحكوم عليه من الثياب ثم يربط على خشبة على شكل صليب، ويطرح على ظهره جمل وتسمى هذه العملية بالتسمير وربما طيف بالمحكوم عليه في شوارع القاهرة. انظر: سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٩٩.
- (١٦٢) انظر القصة في اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ص ٥٥٢-٥٥٣.
- مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ج ١، ص ص ١٢٤-١٢٦.
- المقريزي: السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٥٢١.
- النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ١٠٣-١٠٤.
- الدواداري: كنز الدر وجامع الغرر، القاهرة، ١٩٧١م، ج ٨، ص ص ١٠٣-١٠٤.
- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٩، ص ١١-١٢.
- (١٦٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٨٠٠.
- (١٦٤) نفسه.
- (١٦٥) أبو المحاسن: منتخبات من حوادث الدهور، ج ١، ص ص ١٨٢-١٨٣، ابن إياس: صفحات لم تنتشر، ص ٩.
- (١٦٦) علي السيد محمود: الجوارى، ص ٥٦، الجمال: الأدب العامي، ص ٨٨.
- (١٦٧) د. محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص ١٤٨.
- (١٦٨) انظر مثلاً عندما انخفض النيل في عام ٨٥٤ هـ أمر السلطان بالكف عن المعاصي والصوم كصوم نبي الله داود الذي كان يصوم يوماً ويفطر يوماً.
- انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣١٢.
- وعندما توقف نهر النيل عن الزيادة في عام ٨٦٦ هـ قام والي القاهرة بكيس أماكن اللهو والقبض على من بها وكان من بينهم ابن قاضي القضاة شمس الدين القايتي فشهره على حمار وشقوا به القاهرة مع جملة من شهر من رجال ونساء، انظر ابن إياس: صفحات لم تنتشر، ص ١١٥.
- وفى عهد السلطان قايتباي المحمودي عندما نقص ماء النيل في عام ٨٧٥ هـ أمر السلطان ان ينادوا "أن أحداً لا يفعل منكراً ومن وجد عنده شيء من المنكر ينكل به" انظر الصيرفي: إنباء الهصر، ص ٢٠٥.

وفى عام ٩١٩ هـ عندما انتشر الطاعون نادى السلطان الغورى بمنع بيع النبيذ والحشيش والبوزة ومنع النساء الخواطى من عمل الفاحشة واستمر هذا النداء لمدة ثلاثة أيام متتالية لتزايد عدد المصابين الطاعون.

انظر: ابن إياس: بدائع، ج ٤، ص ٣٠٣.

(١٦٩) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسى والاجتماعى، ص ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦.

(١٧٠) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٩٩.

(١٧١) فقى عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ م أمر "باراقة الخمر من سائر بلاد و أوعد من يوردها بالقتل فأريق على الأجناد والعوام منها ما لا تحصى قيمته"، انظر أبو المحاسن: النجوم، ج ٧، ص ١٥٤.

(١٧٢) ابن شداد: مصر سابق، ص ٣٠٠.

(١٧٣) نفسه.

(١٧٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٢٨، ٢٢٩، وكان بعض الصالحين قد تحدث معه فى ذلك وبسبب له أن القمح الذى جعله الله قوتا للعالم يداس بالأرجل فأمر بإبطال ذلك تقربا إلى الله، انظر المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٠٥-١٠٦.

(١٧٥) النويرى: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ١١٣.

(١٧٦) ابن بهادر: فتوح النصر، مخطوط، ج ١، ورقة ١٠٩.

(١٧٧) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٠٠.

(١٧٨) الصفدى: الوافى بالوفيات، ط فسيبان، ١٩٨١م، ج ١٠، ص ٢١٤.

ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ١، ص ٣٢٦، ونلاحظ أن السلطان قد طبق على شارب الخمر حد القتل وليس حد شارب الخمر كما جاء فى القرآن الكريم.

(١٧٩) الكتبى: فوات الوفيات، ج ١، ص ١٧٠.

(١٨٠) ابن إياس: مصدر سابق، ج ١، قسم ١، ص ٣٢٦.

(١٨١) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٢٤.

(١٨٢) النويرى: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ١٨٠.

(١٨٣) المقرئى: السلوك، ج ١، قسم ٢، ص ٥٩٧.

(١٨٤) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٠٦، وكان قد بلغه فى هذا العام عن الطواشى شجاع الدين عنبر وكان من المقرئين إلى السلطان أنه يشرب الخمر فأمر بشنقه تحت قلعة الجبل، انظر: ابن الفرات: تاريخه، ج ٧، ص ٥٣، المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٠٦.

(١٨٥) المقرئى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٦.

(١٨٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ١، ص ٣٢٦.

(١٨٧) النويرى: نهاية الأرب، ج ٣، ص ١٣٠.

(١٨٨) أبو المحاسن: النجوم، ج ٧، ص ٣٨٠.

ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٣-٤٠٤.

- (١٨٩) المقریزی: الخطط، ج ١، ص ١٠٦.
- ابن العماد الحنبلي، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٣٤.
- (١٩٠) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٠٠.
- (١٩١) المقریزی: السلوك، ج ٢، ص ٥٩، تحقيق: محمد عطا.
- المقریزی: الخطط، ج ١، ص ١٠٦.
- الدوادري: كنز الدرر، ج ٨، ص ١٤١.
- (١٩٢) ابن إياس: مصدر سابق، ج ١، قسم ١، ص ٣٢٦.
- (١٩٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٦٠.
- المقریزی: الخطط، ج ١، ص ١٠٦.
- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٤.
- (١٩٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٦.
- النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٨٨.
- (١٩٥) ابن الفرات: تاريخه، ج ٧، ص ٨.
- المقریزی: الخطط، ج ٢، ص ١١٢.
- (١٩٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ١، ص ٣٢٨.
- (١٩٧) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٥٨.
- ابن الفرات: تاريخه، ج ٧، ص ١٥٨، ١٥٩.
- (١٩٨) المقریزی: السلوك ج ٢، ص ١٤٣ تحقيق: محمد عطا، النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٨٠.
- ويلاحظ أنه أثناء حكم السلطان قلاوون وقعت أيضاً تجاوزات في تطبيق حد شرب الخمر، ففي عام ٦٨٧هـ أمسك بدر بن النقيب الكاتب النصراني بدمشق بامرأة مسلمة ومعها جماعة آخرين كانوا يشربون الخمر فلما عرض الأمر على الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بدمشق أمر أن يلقى النصراني في النار أما المرأة فقطع بعض انفها وشفع فيها فأطلقت، انظر ابن الفرات: تاريخه، ج ٨، ص ٧١.
- (١٩٩) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٩٦، ١٩٧.
- (٢٠٠) السبكي: مصدر سابق، ص ١٤٠.
- (٢٠١) المقریزی السلوك، ج ١، قسم ٣، ص ٨٦٥.
- (٢٠٢) استادار: وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشرب خاتاه والحاشية والغلمان، وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكسوى، وما يجرى مجرى ذلك من الممالك وغيرهم.
- انظر سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٣٨٩.
- (٢٠٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٥٠٤.
- السخاوي: التبر المسبوك، ص ١٢.

- (٢٠٤) المقرئى: السلوك ٢، قسم ١، ص ٥٣، ٥٤.
- (٢٠٥) الياقنى: مرآة الجنان، وعبرة اليقظان، ط بيروت، ١٩٧٠م، ج ٤، ص ٢٤٥.
- ابن كثير: البداية والنهاية، ط بيروت، ١٩٨٢، ج ١٤، ص ٥٠.
- (٢٠٦) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٥٠٥.
- (٢٠٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٧٤.
- (٢٠٨) مهتار الطليخاناه: المهتار: لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت كمهتار الشراب خاناه ومهتار الطشت خاناه ومهتار الركاب خاناه، ومه بكس الميم: معناه بالفارسية الكبير، وتار بمعنى أفضل التفضيل فيكون معنى المهتار: الأكبر. انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٤٧ حاشية ٣، والطليخاناه: كلمة طليخاناه وجهت إلى أربعة أغراض، الأول وهو الأصل أنها تطلق على دار الطبل والثانى على الطبول وما يتبعها من الآلات والثالث على رجال الجوق أى أعضاء الفرقة الذين يحملون الطبول والرابع أنها كانت من أسماء الرتب التى تمنح للأمراء، انظر أبو المحاسن: النجوم، ج ١٠، ص ٤٠، ص ٤١، حاشية ٥.
- (٢٠٩) الدوادارى: كنز الدرر، ج ٩، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢٩٠.
- (٢١٠) نفسه.
- أبو المحاسن: مصدر سابق، ج ٩، ص ٤٧.
- المقرئى، السلوك، ج ١، قسم ١، ص ١٥٢.
- (٢١١) ذكر المقرئى: أن تجيب هم بنو عدى وسعد ابن الأشرس بن شعيب بن السكن بن الأشرس بن كندة، فمن كان من ولد عدى وسعد يقال لهم تجيب وتجبب أهم ويغلب عليهم الظن أن بعض أفراد هذه القبيلة كانوا ضامنا للخانات التى تنزل بها الجوارى والعبيد بمصر لعمل الفاحشة، وذلك لالتزامهم بتحصيل الرسوم التى كانت مقررة على من ينزل بتلك الخانات، انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٤٨، حاشية ١، وربما كان هذا الخط قد تحول سكنا لأهل المنكرات، انظر: المقرئى: السلوك، ج ٢، قسم ١، ص ١٥٢، حاشية ١.
- (٢١٢) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٨٩.
- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٤٦.
- المقرئى: السلوك، ج ٢، قسم ١، ص ١٥١.
- (٢١٣) المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٨٩.
- (٢١٤) ابن إياس: بدائع، ج ١، قسم ١، ص ٤٨٦.
- (٢١٥) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ط النجف، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٣٨٠، يرجع كثرة الخمر والفواحش بالسواحل لكثرة التجار والجاليات الأوربية والطوائف غير المسلمة، انظر عاصم محمد رزق: مراكز الصناعة، ص ١١٠، وقد عاقب السلطان أحد المماليك لشربه الخمر فضرب ضرباً مبرحاً مات منه بعد يومين، انظر أبو المحاسن: مصدر سابق، ج ٩، ص ٧٣.
- (٢١٦) الذهبى: دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٢٨، وهذا العدد الكبير يعطينا صورة واضحة عن انتشار البغاء فى العصر المملوكى.
- (٢١٧) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٦٣.

(٢١٨) الأمير سيف الدين قديدار: ولاة السلطان الناصر محمد ولاية القاهرة بعد الأمير علم الدين سنجر الخازن في عام ٧٢٤ هـ فأراق الخمر وأحرق الحشيش وأمسك الشطار واستقامت به أحوال القاهرة ومصر كان ملازماً لابن تيمية مدة مقامه بمصر توفي عام ٧٣٠ هـ، انظر الصفدي: أعيان العصر وأعيان النصر، ج ٤، ص ٧٩-٨٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١١٣.

(٢١٩) المقرئ: الخطط ج ٢، ص ١٤٩.

ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٤٤.

(٢٢٠) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٩٦ - ٩٧، شرع الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي أحد المماليك السلطانية في عام ٧٣٠ هـ في عمارة جامع بين السورين بالقاهرة، وسمى جامع التوبة لكثرة ما كان هناك من الفساد.

(٢٢١) الملك: بفتح الهمزة، هو الأمير سيف الدين الحاج من كبار الأمراء ومشايخ المشورة. أصله من سبى الأبلستين ووهبه الظاهر بيبرس إلى قلاوون قبل سلطنته ثم صار أميراً وترقى في الإمارة وأعجب به السلطان الناصر محمد لرجاحة عقله، عمر بالحسنية جامعاً وله دار عظيمة عند مشهد الحسين رضي الله عنه والمسجد الذي بجانبه وله مدرسة معروفة به وعندما تولى السلطنة الملك الصالح إسماعيل ولاة نيابة السلطنة عوضاً عن الأمير أفسنقر السلاري عام ٧٤٤ هـ،

انظر أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ج ٣، ص ٨٥، ٨٦، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ٣٧٢. ابن حجر: الدرر الكامنة، ص ٤١١، ترجمة رقم ١٠٦٤، فاشتراط على السلطان أن لا يعارضه أحد فيما يفعل وأن يقيم منار الشرع ويمنع الخمر من ساير الأقاليم فقبل السلطان وولاه فتشدد في منع المحرمات وعاقب كثيراً من الناس، وكانت له مهابة وحرمة اعتقل ثم قتل بسجن الإسكندرية، ٧٤٧ هـ.

انظر: ابن حجر العسقلاني: مصدر سابق، ص ٤١١،

الصفدي: أعيان العصر وأعيان النصر، ج ١، ص ٦٢٠.

(٢٢٢) انظر ما سبق عنها.

(٢٢٣) ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤م، المجلد الثاني، ج ١، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٢٢٤) نلمس التناقض في شخصية الناصر محمد، ففي حين كان يكره الخمر ويعاقب شاربيها نراه يغض الطرف عما يجري كل يوم في خزانة البنود من شرب خمر وبيغاف وفواحش هذا التناقض تكرر أكثر من مرة، ففي حين نراه يلغى كثيراً من المكوس الظالمة عن الرعية نراه يطلق يد ناظر الخاص السلطاني بالمصادرات والطرح على التجار، ٧٣٢ هـ - ٧٤٠ هـ.

(٢٢٥) المقرئ: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٦٤١.

الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، قسم ١، ص ٢٥٦.

(٢٢٦) المقرئ: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٦٤٠.

(٢٢٧) ذكر ابن إياس أن الناس امتنعت عن الصلاة بهذا المسجد لما وقع في أرضه من سفك الدماء وكثرة الرمم التي دفنت بأرضه ولهذا كان باب المسجد دائماً مغلقاً.

انظر: بدائع الزهور، ج ١، قسم ١، ص ٥٠٠.

(٢٢٨) الصفدي: أعيان العصر، ج ١، ص ٦١٩.

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٨٨.

- (٢٢٩) الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد، ص ٢٥٦.
- ابن قاضى شهبه: تاريخه، ج ١، ص ٣٥٣.
- (٢٣٠) المقرئى: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ص ٦٤١، ٦٤٢.
- (٢٣١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٨٨.
- (٢٣٢) المقرئى: السلوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٦٤٢.
- (٢٣٣) نفسه: ج ٢، قسم ٣، ص ٦٤٦.
- أبو المحاسن: مصدر سابق، ج ١٠، ص ٨٨.
- السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٦٣.
- (٢٣٤) نفسه.
- أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج ٣، ص ٨٨.
- (٢٣٥) ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٩١، ويقال إن السلطان كان قد توقع فأشار عليه الشيخ سراج الدين البلقينى وقاضى القضاة برهان الدين ابن جماعة بإبطاله فلما عوفى أبطله.
- انظر ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ٢، ص ١٢٢.
- (٢٣٦) المقرئى: السلوك، ج ٣، قسم ١، ص ٢٦٦، ابن إياس: مصدر سابق، ج ١، قسم ٢، ص ١٦٦، وقد أراد الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا أص إعادة ضمان المغانى غير أن السلطان أصر على إبطاله.
- انظر المقرئى: مصدر سابق، ج ٣، قسم ١، ص ٢٦٧.
- (٢٣٧) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ص ١٧٠ - ١٧٢.
- (٢٣٨) ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر، ج ٢، ص ١٦.
- ابن الفرات: تاريخه، ج ٩، ص ٨٥.
- المقرئى: السلوك، ج ٣، قسم ١، ص ٤٠٥.
- منية ابن خصيب: واقعة على الشاطئ الغربى للنيل، سميت منية ابن خصيب نسبة إلى الخصيب ابن عبد الحميد صاحب خراج مصر فى عهد الخليفة هارون الرشيد العباسى، وهى المدينة التى تعرف اليوم بالمنيا. وهى المدينة التى تعرف اليوم باسم المنيا قاعدة مديرية المنيا بالوجه القبلى بمصر.
- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٦، ج ١٢، ص ١١٢، حاشية ٣.
- أما زفتى فهى قاعدة مركز زفتى بمديرية الغربية بمصر.
- أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٩١، والجدير بالذكر أن الظاهر برقوق لم يكن قد تولى السلطنة بعد فى ذلك الوقت.
- (٢٣٩) الرملة: من الميادين الواسعة تحت قلعة الجبل بالقاهرة، وتعرف الآن بالمنشية، وبها ميدان صلاح الدين.
- انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٧٩، حاشية ٢.
- (٢٤٠) ابن الفرات: مصدر سابق، ج ٩، ص ١١٠.
- ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، قسم ٢، ص ٤١٠، وقد ذكر أن ما كسر منها بلغ خمسة آلاف جرة.

(٢٤١) أنشأ القرآن الكريم إلى أن شهوة الرجال للمرأة أقوى من شهوتهم للمال، قال تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَرْثِ﴾ آل عمران آية ١٤. فقد أصر سبحانه وتعالى ذكر الذهب والفضة عن النساء والبنين لأنهن أقوى في الشهوة من المال ولأن حرمة العصمة والفروج أقوى من حرمة الأموال، انظر النويري: الإلمام، ج ٦، ص ٢٩٠.

(٢٤٢) لقد جرت عادة النساء في ذلك العصر أن يخرجن إلى المقابر والقرافات في الليالي المقمرة والمواسم والأعياد وليالي الجمع من كل أسبوع وهناك يكثر الاختلاط بينهن وبين الرجال فيحدث الفساد لذلك تشددت الدولة في بعض الأحيان في خروج النساء إلى المقابر.

انظر أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، ص ٤٩.

(٢٤٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٣٤.

ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٧٥.

(٢٤٤) ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق، ج ٨، ص ٢٠٢، ٢٥٠.

(٢٤٥) يؤكد هذا ما رواه ابن قاضي شبيه في تاريخه ضمن حوادث عام ٧٩٠ هـ، وكان الطاعون متزايداً بالقاهرة ومصر وضواحيها فيقول نقلاً عن ابن حجي: "وبلغني وأنا بالقاهرة أن رجلاً استدعى امرأة أجنبية إلى منزله للفاشة فاتفق أنه خرج لحاجة، ثم رجع فوجد المرأة قد طعنت وماتت فحار في أمره فجاء إلى صاحب له يستشير في ذلك والتحيل في الخلاص من هذه المصيبة، فاتفقا على أن يقول ذلك الرجل أنها زوجته وجاء معه إلى البيت فنظر إليها، فإذا هي زوجته حقيقة"، انظر، ج ٣، ص ٢٣٩.

(٢٤٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٤٠٤-٤٠٦.

ابن إياس: بدائع، ج ٢، ص ١٨٢، وبدلنا قرار السلطان بتولية الحسبة لدولات خجا أن قرارات السلطان في هذا الشأن كان يستهان بها مع الوقت لضعف مراقبة المسؤولين عنها واعتماد السلطان في ذلك على نوابه وأمرائه دون متابعة من جانبه.

انظر ابن الصيرفي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٠٥-٤٠٦، يؤكد ذلك أن هذا المحتسب كسر في يوم واحد ثلاثة وستين ألف جرة خمر وأنه صمم على تنفيذ ذلك رغم ما عرض عليه من أموال للإعفاء وذلك "شدة فحص السلطان على ذلك" انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٩، ص ١٠.

(٢٤٧) ابن الصيرفي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣٤.

ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٧٥.

ابن الفرات: تاريخه، ج ٩، قسم ١، ص ٢٢٦.

(٢٤٨) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج ٧، ص ٣٤٧-٣٤٨.

ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٤٥٣.

(٢٤٩) ابن حجر العسقلاني: مصدر سابق، ج ٧، ص ٣٦٢.

(٢٥٠) المقريزي: السلوك، ج ٤، قسم ٢، ص ٦٦٦، وتدل عبارة المقريزي على أن العقوبات التي كانت موجهة إلى هؤلاء الذين يمارسون هذه الأعمال المشينة أما ضعيفة مما أدى إلى التماهي فيها دون خوف أو رادع وإما أن العقوبات كانت شديدة ولكن تهاون القائمين على تنفيذها أدى إلى ضعفها والاستهتار بها.

انظر محمد عاطف غيث: المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي، ط الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٩٢.

- (٢٥١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج ٨، ص ١٣٩.
- (٢٥٢) المقرئزي: السلوك، ج ٤، قسم ٢، ص ٧٦٨.
- (٢٥٣) نفسه، ج ٤، قسم ٢، ص ٧٩٠.
- ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ١٤٤.
- (٢٥٤) ابن إياس: بدائع، ج ٢، ص ١٢٢.
- (٢٥٥) ابن الصيرفي: مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٧٤.
- (٢٥٦) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٨٧.
- (٢٥٧) نفسه، ص ٢١١.
- (٢٥٨) نفسه، ص ٣٤٧.
- (٢٥٩) ابن إياس: صفحات لم تنتشر من بدائع الزهور، ص ١٣٧، وكان الباباى أصله طبائخاً وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب فلما تولى الوزارة سكن فى بيت الوزراء الذى ببركة الرطلى، انظر: نفسه.
- (٢٦٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ص ٧٦-٧٧.
- (٢٦١) ابن طولون: مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٢م، ج ١، ص ٢٨٨.
- (٢٦٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٣٠٣.
- (٢٦٣) شذرات الذهب، ج ٨، ص ١٥٠ وفيات عام ٩٢٧هـ.
- (٢٦٤) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٦٧.
- (٢٦٥) المقرئزي: السلوك، ج ٤، قسم ٣، ص ص ١٢١١ - ١٢١٢.
- (٢٦٦) ابن الحمصى: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق د. عمر عبد السلام، تدمري، ط أولى، بيروت، ١٩٩٩ م، ج ٢، ص ٢٥٢.
- (٢٦٧) ابن طولون: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٠.
- (٢٦٨) المؤمنون الآيات: ٥-٧.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر المطبوعة:

- ١- القرآن الكريم
- ٢- ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفى.
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ٥ أجزاء، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢-١٩٨٤.
- صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط القاهرة، ١٩٥١ م.
- ٣- ابن أبيك الدوادارى: أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٨، الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١ م.
- ج ٩، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة، ١٩٦٠ م.
- ٤- ابن حبيب: حسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (ت ٧٧٩هـ). تذكرة النبیه فى أيام المنصور وبنیه، ثلاثة أجزاء، تحقيق: د. محمد أمين، ط ١، القاهرة، ١٩٧٦ م.
- ٥- ابن حجر العسقلانى: شهاب الدين أحمد بن على محمد الشهير بابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ). إنباء الغمر بانباء العمر فى التاريخ، ٩ أجزاء، ط، بيروت، ١٩٨٦ م.
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، أربع أجزاء، ط حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٤٨ - ١٣٥٠هـ.
- ٦- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيمن العلانى، (ت ٨٠٩هـ). نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام، تحقيق: د. سمير طيارة، ط بيروت، ١٩٩٩ م.
- ٧- ابن سعيد: على بن موسى (ت ٦٧٣هـ). نجوم الزاهرة فى حلى حضرة لقاهرة، تحقيق حسين نصار، ط دار الكتب، ١٩٧٠ م.
- ٨- ابن شداد: عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد (ت ٦٨٤هـ). تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط، فيسبادن، ١٩٨٣ م.
- ٩- ابن عبد الظاهر: محبى الدين بن عبد الظاهر، (ت ٦٩٢هـ). الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط أولى، الرياض، ١٩٧٦ م.
- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. مراد كامل، ط أولى، القاهرة، ١٩٦١ م.

- ١٠- ابن العماد الحنبلى: أبو الفلاح عبد الحى ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ).
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج ٥، ط القاهرة، ١٣٥١هـ.
- ١١- ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧هـ).
تاريخ ابن الفرات، مجلدات ٧، ٨، ٩، تحقيق: د. قسطنطين زريق، ط بيروت، ١٩٣٦ - ١٩٤٢م.
- ١٢- ابن قاضى شعبة: تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضى شعبة الأسدى الدمشقى (ت ٨٥١هـ).
تاريخ ابن قاضى شعبة، المجلد الثانى، تحقيق: عدنان درويش، ط المعهد الفرنسى للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤م.
- ١٣- ابن كثير: عماد الدين ابن الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤هـ).
البداية والنهاية فى التاريخ، ج ١٣، ط ١٤، ط بيروت، ١٩٨٢م.
- ١٤- ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور المصرى (ت ٧١١هـ).
لسان العرب، ١٥ جزء، ط. أولى، تحقيق: إبراهيم الزبيق فى بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٥- ابن الوردى: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردى (ت ٧٤٩هـ).
تاريخ ابن الوردى، ج ٢، ط ١ النجف، ١٩٦٩م.
- ١٦- أبو المحاسن: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (ت ٨٧٤هـ).
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج ٥-ج ١٦، ط دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٥-١٩٥٦م - ج ١٣-١٦، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠-١٩٧٣م.
- منتخبات من حوائث الدهور فى مدى الأيام والشهور، ج ١، حررها وليام بيير، كاليفورنيا، ١٩٣٠م.
- ١٧- بيبرس الدوادارى: ركن الدين بيبرس الخطائى المنصورى (ت ٧٢٥هـ).
زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج ٩، تحقيق: د. زبيدة محمد عطا، د.ت.
- ١٨- الجوبرى: زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقى المعروف بالجوبرى.
المختار فى كشف الأسرار، القاهرة، د.ت.
- ١٩- الذهبى: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨هـ).
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج ٤٨-ج ٥٢، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى، ط بيروت، ١٩٩٩ - ٢٠٠٠م.
- كتاب الكبائر، القاهرة، ١٣٩٦هـ.
- ٢٠- السبكى: تاج الدين عبد الوهاب السبكى (ت ٧٧١هـ).
معبد النعم ومبيد النعم، تحقيق: محمد على النجار وآخرين، القاهرة، ١٩٤٨م.

- ٢١- السخاوى: الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان (ت ٩٠٢هـ).
كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك، القاهرة، ط المكتبات الأزهرية، د.ت.
- ٢٢- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (ت ٩١١هـ).
حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، ج ٢، القاهرة، د.ت.
- ٢٣- الشهابستى: أبو الحسن على بن محمد المعروف بالشهابستى (ت ٣٨٨هـ).
الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، ط ثالثة، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٢٤- الشجاعى: شمس الدين الشجاعى.
تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق: بربارة شيفر، قسم ١، فيسبادن، ١٩٧٨م.
- ٢٥- الصفدى: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (ت ٧٦٤هـ).
أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د. على أبو زيد وآخرين، ٦ أجزاء، ط دمشق، ١٩٩٨م.
- ٢٦- الصيرفى: الخطيب الجوهري على بن داود الصيرفى (ت ٩٠٠هـ).
نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، ثلاثة أجزاء، تحقيق: د. حسن حبشى، دار الكتب ١٩٧٠ - ١٩٧٣م.
- ٢٧- الكتبى: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى، (ت ٧٦٤هـ).
فوات الوفيات، تحقيق: محمد محبى الدين عبد الحميد، ج ١- ج ٢، القاهرة، د.ت.
- ٢٨- مجهول: ك. ف. زترشتين.
تاريخ سلاطين المماليك، ليدن، ١٩١٩م.
- ٢٩- مفضل ابن أبى الفضائل:
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ثلاثة أجزاء، ط باريس، ١٩٠٩ - ١٩٢٩م.
- ٣٠- المقرئى: تقى الدين ابن العباس أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ).
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، ط القاهرة، ١٩٨٧م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١، ج ٢، تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، ط القاهرة، ١٩٣٩ - ١٩٤٢م، ١٩٥٨م و ج ٣، ج ٤، تحقيق: د. سعيد عاشور، ط القاهرة، ١٩٧٠ - ١٩٧٣م.
وأيضا ج ٢، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط بيروت، ١٩٩٧م.
- ٣١- النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى.
نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج ٣٠، تحقيق: د. محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة ١٩٩٠م ؛ ج ٣١، تحقيق: د. الباز العرينى، ط القاهرة، ١٩٩٢م، ج ٣٢، تحقيق: أ. فهم محمد شلتوت، ط دار الكتب، ١٩٩٨م.

٣٢- النويرى السكندرى: محمد بن قاسم بن محمد النويرى (ت بعد سنة ٧٧٥هـ).

كتاب: الإمام بالإعلام فيما حرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية، ج ١، ط الهند، ١٩٦٨م.

٣٣- اليونينى، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونينى البعلبكى الحنبلى (ت ٧٢٦هـ).

ذيل مرآة الزمان، ج ١، ط أولى، حيدر آباد الدكن، ١٩٥٤ م.

ثانياً- المراجع:

- ١- أحمد تيمور: خيال الظل، ط أولى، القاهرة، ١٩٥٧ م.
- ٢- أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية فى الأبيّن الفاطمى والأيوبي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ٣- أحمد صادق الجمال: الألب العامى فى مصر فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ٤- د. أحمد عبد الرازق: المرأة فى مصر المملوكية، القاهرة، ١٩٩٩م.
- ٥- جاك. س. ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، القاهرة، د.ت.
- ٦- جبور عبد النور: الجوارى، سلسلة اقرأ، العدد ٥٩، دار المعارف ١٩٤٧م.
- ٧- حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٨- سعيد عاشور: المجمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م.
- العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ٩- عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى، القاهرة، ١٩٤١ م.
- ١٠- عفيف عبد الفتاح طيارة: الخطايا فى نظر الإسلام، ط سادسة، بيروت ١٩٨١م.
- ١١- على السيد على: المرأة المصرية والشامية فى عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ١٢- د. على السيد محمود: الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة ١٩٨٨ م.
- ١٣- قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك، ط ثانية، القاهرة، سنة ١٩٨٣م.
- عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسى والاجتماعى، ط أولى، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ١٤- لويس اسكندر: الأسرة ومشاكلها الاجتماعية، القاهرة، ١٩٤٤م.
- ١٥- محاسن محمد الوقاد: اليهود فى مصر المملوكية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية، ط القاهرة، ١٩٩٩م.
- ١٦- د. محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٧٠ م.
- ١٧- محمد عاطف غيث: المشاكل الاجتماعية والسلوك الاثحرافى، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
- ١٨- محمد علم الدين: التربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٧م.

- ١٩- محمد فريد جنىدى: البغاء، ط أولى، القاهرة، ١٩٣٤ م.
- ٢٠- نجىة إسحق عبد الله محمد: سىكولوجىة البغاء، ط أولى، القاهرة، ١٩٨٤ م.
- ٢١- ولىم مویر: تاریخ سلاطین الممالیک فى مصر، القاهرة، ١٩٩٥ م.

